رواية

شظايا قلب محترق

صبرينة بوحنك

شظايا قلب محترق

عنوان الكتاب: شظايا قلب محترق

الكاتبة: صبرينة بوحنك

الناشر: ماروشكا للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: نوفمبر ٢٠٢١ م

ردمك: ٩٧٨-٩٩٣١-٨٤٢-٧٨-١

المدير العام: بن وارث أمال

لمراسلة الدار:

إيمايل: marouchka.edition@gmail.com

هاتف: ٢١٣٦٩٧٧١٧٠٥٠+

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن منه.

شظايا قلب محترق

رواية

صبرينة بوحنك

دار أوشيا
للنشر والتوزيع

إهداء

إهداء لكل من شجعني لكي أكتب، لكل من أحب كلماتي البسيطة، لكل قلب أحب بصدق وخذل، إلى من سقطت روحه ثم عادت لتحيا من جديد، إلى الذين يتشبثون بأحلامهم، هناك صداقة دائمة وقلب يدق حبا، وأب يضحي من أجل أولاده وخالق يجبر كل منكسر...

اتخذت هذه السطور كذريعة للتهرب من الواقع المرير.

إلى أبي الغالي... يوما ما ستروي لك الأيام كفاح ابنتك، ستخبرك أنها نسيت الأحزان ومضت لتحقيق تلك الآمال.

إلى أمّي التي أمطرتني بدعواتها المباركة، إلى كل من شاءت الأقدار أن ألتقي بهم ونشأت بيننا روابط المحبة والصداقة.

إلى الناقد «حليم» الذي لم يبخل بتوجيهاته، وآمن بحروفي.

أهدي هذه الكلمات...

الحارثة

استيقظت رهف كعادتها على صوت آذان الفجر بعد أن توضأت وهيأت نفسها لأداء الصلاة بيدين مبللتين بقطرات الماء، ووجه ينبعث منه النور، دعت الله أن يوفقها في تحقيق أحلامها وراحت تساعد أمها في تحضير مائدة الفطور بعد أن قبلت يد جدها وعانقت أخاها الصغير «محمد» ثم تناولت فطورها وانصرفت إلى الجامعة.

تدرس رهف في كلية الآداب واللغات بالجزائر العاصمة وهي في السنة الأولى، فقد كانت شغوفة بمادة اللغة العربية وأرادت التخصص فيها، نعم إنها لغة القرآن، لغة أمة خير الأنام... توّد أن تلتحق بمجال التعليم كي تصبح أستاذة مربية وناجحة.

تسير بابتسامة وتضحك مع الزّهور التي جعلتها رفيقة دربها.. ضجيج يعلو كليتها بينما هي تمشي في الرواق حاملة حقيبتها، وكتبا كانت بصدد إرجاعها إلى المكتبة فإذا بها تصطدم بشاب ملامحه تشير على أن بركانا يملأ داخله ونظرات عينيه يتطاير منهما الشرر فصرخ:

– ما بك يا فتاة؟ ألا ترين؟

أجابت: أنت الذي تجري وكأن الشرطة تلاحقك!

رد قائلا: ماذا؟ يا لك من بائسة، اغربي عن وجهي وإلا سأرتكب جريمة بحقك!

رأت رهف دما يسيل من على أنفه يبدو أنه تشاجر مع أحدهم، وأخرجت منديلا وقالت: تفضل، دم يسيل من أنفك امسحه!

زالت تلك الملامح المشدودة من على وجهه وأصابه ارتباك لأنها

قابلته بعفو بالرغم من إساءته.

- تفضلي وامسحيه أنت!

- ماذا؟؟

رد عليها: نعم، امسحيه من فضلك.

شرعت تمسح قطرات الدم واحمّرت وجنتاها، ويداها ترتجفان من شدة التوتر، فبنية جسمه مخيفة، نظرت إلى عينيه فرأت نزيفا من الألم.

لا يمكن أن نحكم على الناس من مظاهرهم، فلا تحكم قبل أن ترى وتسمع، فكثير من المظاهر تخدع، فرب مبتسم باك.

أغمض زين عينيه وأحس بيد لطيفة تلمسه، جالت به ذاكرته إلى الماضي حينما كانت أمّه من تمسح عنه الآلام، انشق قلبه ألما وامتلأت عيناه دمعا.. كتم أنفاسه وقال لها:

- شكرا، أعتذر عن معاملتي السيئة.. ثم انصرف، بقيت رهف واقفة لدقائق، صعدت المكتبة كي تعيد الكتب ودخلت المحاضرة متأخرة، تبادلت أطراف الحديث مع زميلاتها وبقيت شاردة من موقف اليوم، رأت دموع رجل ولمست وجه شخص غريب!

غادرت رهف الجامعة بعد يوم متعب.. وصلت إلى البيت.

- السلام عليكم يا أهل البيت.

فرد جدها: وعليكم السلام، ها قد جاءت زمردتي.

ضحكت رهف وقالت: أين هو محمد يا جدي؟

أجاب: في غرفته يراجع دروسه وأمك في الخارج تغلق الخم على دجاجاتك.

– حسنا جدي، سأغير ملابسي وأحضر لكم العشاء.. ثم صعدت إلى غرفتها وغيرت ملابسها.. لحظات ودخلت أمها..

– أهلا عزيزتي، لمَ تتعبين نفسك؟ كنت سأحضره.

– لا بأس أمي، أم أن طعامي لا يعجبك؟

ضحكت الأم وأجابت بابتسامة لطيفة: لذيذ يا ابنتي.

تناول أفراد العائلة الطعّام تحت صخب ثرثرة رهف ومحمد، بعد أن أكملوا طلبت رهف من محمد أن يجمع لها الصحون وسألته عن أخبار دراسته فطمأنها أنهّا تسير على ما يرام، ثم ذهب للنوم. بينما هي تناولت دواءها فهي تعاني من فقر الدم منذ نعومة أظافرها، دخلت إلى غرفته فوجدته نائما كملاك، قبّلته وراحت هي الأخرى لغرفتها، بينما زين في الخارج رفقة أصدقائه وهم يمزحون إلا أنه بقي شارد الذهن.

سأله زياد: ما بك يا زين؟ لمَ أنت تائه؟

ردّ زين: أنا بخير..

«لكنّه يكذب ويخفي شيئا» تمتمها زياد في نفسه.

– أستأذنكم، سأنصرف، سهرة ممتعة.

ردّوا عليه: نلتقي غدا إن شاء الله.

راجعت رهف دروس الغد جيدا بالرغم من تعبها وكومة من الأسئلة تطرحها على نفسها.. ترى من يكون ذلك الشاب؟ ثم ضحكت بخفاء وقالت: لما أفكر به أنا حمقاء! هيا يا نفسي لتنامي.

الفراق

توالت الأيام، رهف منشغلة تساعد أمّها التي كبرت من جهة ومن جهة أخرى تعتني بمحمد ومحافظة على دراستها، بين حين وآخر تتنزه رفقة صديقاتها، أمّا زين فقد ابتعد عن أصدقائه وهمّه مراقبة تلك التي حركت شيئا ما في داخله.

انتهى وقت المحاضرة، انصرفت مريم ورهف خارج القاعة فإذا بهاتف مريم يرن..

- نعم، أبي لقد أتممت الدرس أنا بانتظارك.. وأغلقت الخط.

قالت رهف: حفظ الله لك أباك، سأنصرف الآن.

- تعالي سنوصلك في طريقنا.

- لا، أريد أن أتمشى لوحدي، بلغي سلامي لأمّك.

- رافقتك السلامة يا رهف.

تمشي رهف ببطء وقد خيّم الحزن على عينيها السوداوتين، كيف لا وهي تشتاق لأبيها الذي رحل جسده لكنّ روحه ملتصقة بقلبها، فقدت جدارا يحميها وجالت بها ذاكرتها إلى أيام الطفولة.. «ليتك معي الآن» تقولها بخيبة.. رحمك الله.

قد نضعف أمام مرّ القدر ونشكو لكن الشّكوى لغير الله مذلة، فهكذا رهف لا تشكو إلا لسجادتها!

دخلت المنزل وملامح وجهها تشير إلى أنهّا متعبة، سألتها أمها: ما بك يا بنيتي؟ تبدين مريضة!

– لا، لقد تعبت فقط من الدراسة أنا بخير.. تمتمت في نفسها: آه، يا أمّي أحس أنّي بلا أكتاف تحمل جسدي، جسمي متثاقل والكون لا يسعني، من أجلك أتحمل... وصعدت إلى غرفتها كي تستريح قليلا.

دلفت إلى غرفة جدّها فوجدته حاملا كتاب الله يقرأ كلماته التي ينبعث منها الأمان تراقبه.. بعد أن أكمل أسرعت وقبّلت يديه، دقائق ونادت عليهم السيدة زينب: هيا، العشاء جاهز.

أتى محمد إلى غرفة جده فوجد رهف بأحضان جدها، أصابته الغيرة ورمى نفسه، ضحكات تعلو الغرفة...

– آه يا ولدي كم أحبك، هيّا انهضا؛ سترى أمّكما المشهد وتصاب بالغيرة هي كذلك!

ساعدا جدّهما عمر على النهوض فقد صار شيخا كبيرا يتكئ على عصاه بعد أن حلّ الشّيب برأسه، جلسوا إلى الطاولة وأمّهما مسرورة جدا أنْ رأتهما يضحكان مع جدّهما.

أحيانا حضن دافئ كفيل بأن يجعل يومك بأكمله رائعا، فما أجمل أن يكون لك جدّ كأب حنون معطاء، نِعْمِ أسرة بأحضان دافئة!

محمد: ألا ترون أنّ هناك شخصا لم يتفوّه بكلمة منذ أن بدأ بابتلاع حبات الصين!

ضحك جدّه وأمّه كثيرا بعد أن ألقوا نظرة على رهف فمظهرها كان مضحكا جدا. انصرف كل واحد إلى غرفته، تمدّدت رهف على سريرها وبدأت تتذكر لما كانت في عمر محمد وكيف اعتنى بها أبوها ودللها..آه من الذكريات تُحدِث دوما فينا تجاعيدا تسكن أرواحنا فلازالت تراودنا دوما، فأحيانا ابن آدم لا يعرف قيمة ما بين يديه حتى

يفقده، بالرغم من أنّ رهف تحتويها عائلة محبّة لها، لكن وفاة أبيها أكبر حادث يؤثر فيها.. راحت إلى نافذتها تراقب القمر فتراه في أبهى حلة، تلك النّجوم التي حوله وعيناها تحترقان بالدموع، تراكمت الأيام على ذاكرتها، أمسكت دفترها لعلها تخطّ شيئا يخفف من روعها لكن دون جدوى خانتها الكلمات، مظهرها الثابت يغري الجميع لكن لا يعلمون أنها منطفئة من الداخل، لا يمكن أن تبوح بما تشعر به لأحد سوى لدفتر وسجادة طاهرة.. تبكي بصمت، احتضنت وسادتها وغطت في نوم عميق.

الساعة تشير إلى الواحدة ليلا، صرخ محمد فقامت زينب مسرعة إليه..

– ما بك يا ولدي؟ والعرق يتصبب من رأسه وهو خائف.

– رأيت كابوسا مزعجا يا أمي!

احتضنته بقوة ودقات قلبها تتسارع..

– لا تقلق، استغفر وانفث على يسارك ثلاث مرات حتى أجلب لك الماء.

نزلت السيدة زينب بسرعة إلى المطبخ لتحضر الماء ويداها ترتجفان خوفا وشعرت بقبضة في قلبها..

– تفضل يا صغيري، اشرب الماء وستتحسن.

– شكرا أمي، نامي معي.

– طبعا يا ولدي، هيّا أغمض عينيك عساه خيرا.

تأخر الوقت.. يا للمصيبة تنهض رهف فزعة لم تستيقظ باكرا،

خرجت من المنزل مسرعة لتجد شوارع الحي تبتل بالأمطار تحت عاصفة ممطرة وسحب مغيمة.. تجري بكل ما أوتيت من قوّة كي تلحق بالحافلة، وصلت إلى المحطة فلم تجدها، بدأت تتأفف..

– آه منّي نسيت أمر المنبه.. كيف لم أشغله؟!

بينما هي تحادث نفسها فإذا بذاك الشخص الضّخم ذو الحاجبين المقرونين والملامح الغامضة يضحك من غضبها، قامت من الكرسيّ وهي مرتبكة وقالت بصوت حاد: ما بك تضحك؟

– انظري لحذائك مختلف عما هو موجود في قدمك الأخرى... توردت وجنتاها وأحست بحرارة تشتعل في جسمها من ذاك المظهر..

– أفّ منك، سيكون يوما مملا حتما لأنني قابلتك.

حملت حقيبتها وانصرفت متجهة نحو البيت.. لحقها زين وهو متمرغ من الضحك من حالتها الفوضوية تلك، إنه ممسك ببطنه فهو يتفنن في إزعاج الفتيات.

– اغرب عن وجهي أيها الأحمق ما المضحك في هذا؟ ثمّ أمسكت حذاءها ورمته عليه.

رد زين بسخرية: أهذه البنت المحجبة؟ هكذا تعاملين غيرك؟

– لا تلحق بي، اذهب لدراستك.

– ما أنا بذاهب حتى ترافقيني.

انفجرت بغضب: لا يسرني أن أرافق مغرورا مثلك!

وهو يلاحظ ملامحها بدقة...

– حسنا، ستغيرين الفكرة يوما ما.

تساءلت في نفسها قائلة: ماذا يريد هذا الوغد؟ رجعت رهف إلى البيت وهي غاضبة.

– ما بك يا ابنتي، ما هذه الحال التي أنت عليها؟

– لم أنهض يا أمي.. فوجدت الحافلة قد غادرت.

– هيّا، لباسك مبتل غيّريه قبل أن تمرضي.

بعد أن غيّرت ملابسها، استأذنت من أمّها وأخبرتها أنها تريد الذهاب إلى عمّتها خليدة، أومأت الأمّ برأسها ففهمت رهف أنهّا موافقة ثمّ انصرفت رهف واتجهت نحو البقالة كي تقتني بعض الحلويات لابنة عمتها «ريماس».

في بيت بطابقين تجلس خليدة بجانب التلفاز وتشاهد الأخبار وابنتها الصغيرة تلعب بألعابها فإذا بالباب يدق..

– آه، جميلتي، كم اشتقت إليك.. بعد أحضان وقبلات حارة.

تحبو ريماس على أطراف يديها الجميلتين عندما رأت رهف على الباب واقفة.. تركت رهف حضن عمّتها وأسرعت إلى ضمّ ريماس بعد شوق طويل وكلتاهما تضحكان ثم أبقتها في حضنها.

– كيف حالكم يا ابنتي؟

– بخير عمّتي، اشتقت إليك.

– لماذا لم تأت أمّك معك؟

– أعمال البيت كما تعلمين وجدي متعب قليلا.

– ماذا؟ ما به أبي؟ خيرا!

– حال الكبر يا عمتي، سيكون من الأفضل أن تزوريه لأنه لم يرَك منذ مدة.

– طبعا يا رهف، انتظريني كي أتصّل بعمك هيثم وأستأذن منه.

كلمت خليدة زوجها ووافق على ذهابها وأخبرها أنهّ سيمرّ لكي يراه بعد إنهائه من عمله.

الجدّ عمر له ابنة واحدة وابنه المتوفى «أحمد»، أمّا زوجته حفصة فقد توفيت منذ عام بعد معاناة طويلة مع المرض وعدم تحمّلها لفراق ولدها.

بينما رهف تداعب ريماس أتت عمتها وأخبرتها بأنها ستحضر «البغرير» لأنّ عمر يحبّه كثيرا.

– تعالي معي إلى المطبخ، لن يستغرق ذلك وقتا طويلا.

– حسنا عمتي..

طحين، بيض، حليب، خميرة وسكر وحليب... بعد أن مزجت خليدة كل تلك المكونات تركتها لكي تختمر وطلبت من رهف أن تحضّر حقيبة ريماس، لمحت قلقا على ملامح خليدة بعد أن أخبرتها بتعب أبيها، ظلت خليدة تردّد: يا رب لا تبتليني بفقدان أبي.

شكّلت فوق ما يسمى «الطاجين» المصنوع من الطين دوائر بذاك الخليط ومن ثم رتبتها على الصحن فور نضجها ووضعت فوقها الزبدة الذائبة مع العسل الحلو.

– يا لها من سعادة! رائحته شهية يا عمتي.. دخلت رهف المطبخ وبرفقتها «ريماس».

– ها قد أكملت يا رهف سأرتدي ملابسي وننصرف.

بخطوات رجليها الناعمتين تمشي ريماس رفقة أمّها ورهف إلى بيت عمر، استقبلتهن زينب بترحاب والفرح مرسوم على وجهها، أمّا الجدّ عمر فطار من شدّة فرحه برؤية ابنته خليدة، بعد عناق دام طويلا، سألت خليدة أباها:

– أبي.. تبدو متعبا هل أنت بخير؟

– بوجودك أنا بخير، لقد كبرت يا ابنتي ومنطقي أن أمرض كثيرا، سعدت برؤية الكتكوتة حفيدتي لقد أصبحت طبق الأصل منك.

ضحكت خليدة وتبادلت أيام ذكرياتها مع أبيها، كانت أمسية رائعة بعد أن اجتمعت العائلة كلها وحضرت زينب ورهف أشهى الأطباق، لكن عمر كان ببريق عينيه لمحة حزن وخليدة تبتسم لكنها قلقة كثيرا، نام الجميع في ليلة ممطرة وعواصف الرياح قد أسقطت أوراق الأشجار.

«مرات عدة أفكر في أولئك الذين ينامون في الشوارع ومن يقطنون في منازل هشّة، ستخرب الأمطار بيوتهم أعانهم الله! تذكرت ما يفعله المطر.. روح تشرب تحت التراب وعين تدمع من وراء ذاك الكتاب، جاعت البطون وبكى الفقير»

الساعة الثانية ليلا، تحسست خليدة حركات ريماس فنهضت كي تحضّر لها الحليب، حملتها كي لا تثير ضجة ويستيقظ الجميع، بينما محمد وأمّه نائمين في الغرفة المجاورة وعمر نائم وحده في غرفته السّفلية.

في غسق الدجى تعودت زينب أن تقوم لصلاة قيام الليل فخير ما يقوم به المرء مداومته على عبادة ربه والإلحاح بالدعوات فلا شيء

مستحيل مع خالق الأكوان السميع المنّان، فإن ردّك النّاس فالله لا يردُّ عبدا لجأ إليه، فإن احتار عليك أمر فقل: «يا بصير أرشدني»، وإن انكسرت فاسجد وقل: «يا جبّار اجبرني»، فلن تجد أحنّ من حضن الأرض وأنت لربكّ ساجد، ظلت تدعو الله بقلب صادق أن يحفظ لها أولادها ويشفي حال الجدّ عمر، فتفوهت بكلمات نبعت من خشوع تام «يا رب استودعتك كل أموري فأحسن تدبيرها».

بعد أن أنهت صلاتها فإذا بها تسمع أنينا آتيا من غرفة الجدّ عمر فذهبت كي ترى ما مصدر هذا الأنين..

– زينب.. زينب.. كلمات متقطعة وأنفاس متعبة وعرق يتصبب كأنه شلال، دخلت لغرفته وأشعلت المصباح..

– ما بك يا جدّي؟

وجدته يلفظ أنفاسه الأخيرة..

– هل أحضر لك الطبيب؟ أجبني.

– لا يا ابنتي لا تتعبي نفسك، لقد جاء يوم مغادرتي، أحضري لي خليدة ورهف كي أراهما.

سقطت الدموع وتطايرت الكلمات، شعور مؤلم...

– لا تقل هكذا أرجوك ستكون بخير!

أسرعت زينب لغرفة خليدة وأيقظتها..

– خليدة، خليدة.. انهضي، أبوك يلفظ أنفاسه.

سمعت رهف تلك الأصوات فاستيقظت لتجد غرفة جدّها مليئة بالدموع، خليدة مسيطر عليها الخوف ترتجف وتبكي في حالة صعبة،

أمّا رهف فهي غير مصدقة لما تراه وقالت:

- جدي لن أتحمل فقدانك!

تخرج كلمات عمر بصعوبة فسكرات الموت بدأت تدخل روحه الطاهرة.. يا للألم!

- زينب بنيتي، رهف ومحمد أمانة عندك فلتحافظي عليهما.

آه من مرارة الفقد...

ثم قال عمر:

- أشهد أنّ لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله.. أغمضت عيناه البراقتان بالنّور وانتقل إلى رحمة ربه.

صرخت خليدة ورهف صرخة تهزّ الجبال..

- لا ترحل.. لا ترحل! أبي.. جدي.. يا عمر!

صرخ الجميع، لحظة تمزقت بها القلوب ألما، ما أصعب لحظة الوداع! نموت بموت من نحب فلا الكلمات ستواسينا، فمرارة الفقد تكون صعبة أحيانا! وأي فقْد... فقدان البسمة الضاحكة للبيت.

مسحت خليدة دموع رهف واحتضنتها وقالت:

- هذه مشيئة الله فلنصبر لا مفرّ من قدر الله، هيا انهضي.

اتصلت زينب بأقربائه وأخبرتهم بوفاته، بينما محمد الصّغير يرتعد خوفا.

شرعت رهف تقرأ آيات من القرآن بقلب منكسر، تتباطأ دقات قلبها ودموع عينيها أبَت أن تتوقف... سقطت أرضا جثة هامدة،

نظرت إليها خليدة فتركت ريماس مع محمد الذي لم يتوقف عن البكاء وصرخت:

– يا زينب تعالي رهف أغمي عليها.. الخبر كان كالصاعقة على مسمع زينب، نزلت الدرج ولا تدري كيف وصلت إليها..

تولول... «رهف يا ابنتي انهضي أرجوك».. ترش قطرات الماء على وجهها الذي نشف الدم منه وأسرعت لجارها خالد ولا تدري كيف ساقتها رجلاها لمنزله، دقت الباب بصوت عال:

– رهف.. رهف أغمي عليها، ساعدني يا خالد.

– يا للهول لم تتحمل خبر وفاة عمر.. دخل خالد لغرفة رهف وحملها وهو يردد: لطفك يا رب!

ساعدته زوجته وفتحت له باب السيارة، شغّل المحرك ويداه ترتجفان فهو في صدمة من أمره وانطلق انطلاقة مسرعة بينما سعاد تواصل إيقاظ رهف لكن دون جدوى ثم قالت: خالد أسرع أرجوك!

بقيت خليدة وزينب بقلبين منكسرين ونشوة حزن شديدة بروحين مرهقتين، احتضنت زينب خليدة ومحمد بقوة وبثت في روحيهما كلمات تجعلهما يصبران على هذه المصيبة، لحظات ودخل هيثم زوج خليدة معانقا زوجته التي فقدت أغلى ما تملكه.

نامت ريماس في حضن أبيها وذهب بها إلى أمّه كي تعتني بها فزوجته ليست لها قدرة، ثم عاد إلى منزل عمر وكان النّهار قد أشرق وبدأ باستقبال النّاس الذين أتوا للعزاء..

وصل خالد إلى المستشفى وهو يلهث..

– نقالة، نقالة.. فجاءت ممرضة وساعدته لإدخال رهف إلى غرفة

الاستعجالات.

الطبيب: ما بها؟

– لقد توفي جدّها منذ قليل ولم تتحمل فأغمي عليها، علما أن عندها فقر دم حاد منذ صغرها.

– حسنا لا تقلق، صدمة فقط، ستكون بخير إن شاء الله.

بقي خالد وسعاد في الخارج ينتظران، واتصلت سعاد بزينب لتطمئنها على حالتها..

– شكرا لكما.

جسم هزيل وقلب يتألم.. حالة إغماء تامة وسعاد تنظر إلى رهف من النافذة وقلبها يعتصر وجعا أمّا خالد فقد ظلّ يدعو الله أن يحفظها وتستعيد عافيتها.

أقيمت الجنازة والنّاس يتهافتون من كلّ مكان فقد غزا الخبر الأسود المدينة بأسرها.. ألم أصاب الجميع لفقدان المرحوم عمر فهو محبوب النّاس، محبٌّ للفقراء فقد ترك وراءه مسجدا يبنى من أمواله الخاصة، يتعطش دائما لفعل الخير والنّاس تشهد على ذلك، زحام شديد عمّ الأرجاء هذا يحمل صندوق عنب وذاك يوزّع القهوة أعدتها نسوة الحي وزينب وخليدة جالستان وتردان عن اللواتي يمررنّ عليهن، هيثم يحبس دموعه ودعا أن يثبته الله عند السؤال.

آه ما أشد ظلمة القبر!

ألسنة الحاضرين تتحرك وتدعو له بالرحمة، فإذا جاءه مهموم خفف عنه وإن قصده محتاج أعطاه، وإن سمع بمريض عاده، كما لا يغيب عنّا لقد اعتنى بعائلة ابنه وغرس في قلوبهم مبادئ الإنسانية وقيم الإسلام

السمحة.

رفُع آذان الظهر ها هو جثمان عمر يحلّ ببيته ليودّعه النّاس.. اشتد البكاء وازدادت شحنات الأسى قلب ابنته وزوجة ابنه يقطران قهرا.. تردّدان دعاء الميّت بقلبين منكسرين، سيدفن عمر دون أن ترى جثمانه حفيدته التي تعاني الأمرين!

بين القبور يظهر تابوت به جسد طاهر وصل إلى مطافه الأخير، خيم الحزن على الحاضرين جميعا وعيونهم تمطر مطرا وألسنتهم تقطر دعاءً «اللهم ارحمه، اللهّم اغفر له»، أمّا ذاك الصغير البريء «محمد» تربع على قبره وراح يبكي بدموع تألم لها الجميع... زياد يلهث مسرعا لقاعة الرياضة المتواجدة بجانب الجامعة..

– زين، زين.. لقد توفي الجدّ عمر.

– عمر؟ لا أعرفه... انتظر انتظر أليس ذاك الشّيخ الطيّب الذي توفي ولده الوحيد منذ عام؟ ذاك الشّرطي المقدام المتواضع! هل هذا هو؟

– نعم يا صديقي إنهّ هو، لقد سمعت للتو بالخبر فأعلمتك، ألا ترى أنّ الشّوارع خاوية؟

– لم أكن أعلم..

– لقد شيعت جنازته، هيّا لنذهب ولنقم بالواجب.

– بعد ساعة نلتقي، سأستحم وأغير ثيابي.

– حسنا يا زين..

توالت الساعات ورهف ممدّة على السرير وجهاز نبضات القلب يخط خطوطا على أنّ قلبها ما زال ينبض، ممدّدة بمصل دم في يدها بينما

أمّها وعمّتها تدعوان آملتين أن تكون بخير.

عندما تبرّ بوالديك اعلم أن دعاءهما سيكون لك ترياقا يرافقك في أشد محنك.

بدأت تتكلم بكلمات غير مفهومة «جدّي أين أنت؟ أين أنا؟ ما هذه الستائر الزّرقاء!»، بوجه باهت مصفر فتحت عينيها، رأتها سعاد من النافذة فدخلت فورا برفقة خالد.

خالد: كيف حالك الآن يا رهف هل تسمعينني؟

- أين جدّي يا عم خالد؟

ردّت سعاد: رهف، جدّك مات!

حدّقت رهف في تلك الغرفة ذات الجدران الزّرقاء ونظرت ليدها فوجدت بها إبرا موصولة بأنابيب من الدم واغرورقت عيناها بدموع ساخنة وصرخت:

- آه ضاع حضني، أريد رؤية جدّي يا عمي كيف له أن يتركني ويرحل!

انهمرت دموعها بسرعة ولم تكف عن الجريان وتصرخ بكل قوة:

- أنتما تكذبان، جدّي لن يتركني لا لا.. لا يمكن!

دوامة هيستيريا قد سيطرت عليها وصورة جدّها مرسومة في ذاكرتها وصوته لا يزال في أذنها.

عانقتها سعاد وأمسكت بيدها وقالت:

- فلتهدئي يا رهف، أنت مثقفة ومؤمنة وتعلمين أنّ قضاء الله لا مفرّ منه وأن حقيقتنا تراب وسنعود إليه، نحن لسنا سوى ضيوفا في

هذه الدنيا الضيقة.. صمتت رهف أمّا خالد فخنجر قد غرز في جوفه من حالة رهف ثمّ قال:

– رهف تماسكي من أجل أمّك وأخيك وعمتك، أنت قوية وإيمانك قويّ، أقيمت الجنازة فكما تعلمين إكرام الميت دفنه وأنت لا تستطيعين الذهاب لأنك متعبة والطبيب لم يسمح بخروجك نعتذر..

صرخت: لماذا لم تنتظروني؟ كيف استطعتم أن تحرموني من رؤيته للمرة الأخيرة؟! إنه كابوس، ليست حقيقة خذوني إليه.. وبكاء عمّ تلك الغرفة.

دخلت الممرضة إلى الغرفة ودهشت لما رأت حالة رهف، أسرعت وحقنتها فنامت بعمق ثمّ قالت: لا تتحدّثوا معها، دعوها لتستريح، شفاها الله.. وخرجت.

بقيت سعاد وخالد في الغرفة ينظران إليها وألم يمزق قلبيهما.. لحظات وقد رنّ هاتف سعاد..

– نعم يا زينب.. لا تزال نائمة.

– لم يحدث لها مكروه أليس كذلك؟

– نعم، اطمئني...

– حسنا شكرا لكما.. وأغلقت الخط، كان صوت زينب متعبا جدا فهي تعاني الأمرين، بعد ساعة التقى زياد وزين وذهبا معا إلى بيت الجد عمر.. ها قد وصلا، حشد من الناس..

هيثم يقف أمام الباب يستقبل النّاس هو وجيرانه..

دخل زين قائلا بعبارة حزينة:

– عظم الله أجركم، رحمه الله وجعل قبره روضة من رياض الجنة.. وسلم زياد على هيثم. جلسا معا وتراتيل القرآن تعمّ المكان وأحاديث النّاس كلها عن الجدّ عمر «نعم الرجل عمر.. رحمه الله».

دخل الطبّيب إلى غرفة رهف فوجد خالد وسعاد هناك، طمأنهما على حالتها وقال: بإمكانها مغادرة المستشفى، أبعدوها عن الضغط.

خالد: شكرا لك.

فتحت رهف عينيها اللتين تبدوان متعبتين..

سعاد: حمدا لله على سلامتك، سنخرج الآن.. لم ترد رهف وأومأت برأسها فقط!

بينما زياد وزين خارجان من المنزل إذ بسيارة خالد اصطفت بجانب البيت، لمح زين رهف، تجمّدت قدماه وابتلع ريقه بصمت وضغط على يد زياد، رآه الآخر يحدّق في رهف لكنّه بقي محتارا.

خالد: هيّا رهف، استندي على كتفي وامشي ببطء.

لم يحس زين بشيء سوى برودة في جسده وعينيه خيّم عليهما الضّباب وقال: ما الذي يجري؟!

أجاب زياد: لقد سمعت بأن حفيدته في المستشفى، صدمت من وفاة جدّها لأنه هو من كان متكفلا بها.

اندهش زين وقال: ماذا! حفيدته؟!

دقائق وزين شارد وكأنّ الدّنيا كلهّا توقفت لرؤية رهف بتلك الحالة، وانصرفا.

دخلت سعاد وخالد إلى البيت بعد أن بقيت خليدة ومحمد وزينب

وحيدين، فالكلّ غادر المكان بعد الجنازة.. ارتمت رهف في حضن أمّها وشرعت في البكاء.

وراحت أمّها ترسل عبارات تخفّف عن حزنها، أمّا خليدة فمتمسكة بزوجها وابنتها، كان يوما حزينا.. غادر الجاران المنزل بعد يوم متعب للغاية وشكرتهما زينب على حسن كرمهما.

دقّ الباب، راحت سعاد لتفتح فوجدت زميلات وأساتذة رهف قد جاءوا فهمت بإدخالهم إلى غرفة الجلوس ليجدوا رهف هناك فاحتضنوها..

مريم: عظم الله أجركم يا صديقتي وألهمك الصبر والسّلوان.

رهف: شكرا لكنّ جميعا.. شكر الله سعيكن.

غادر الجميع وبقي المنزل بأصحابه فقط خاليا من ربيع مزهر.

من الجميل أن تملك جارا يبقى معك في أشدّ محنك، تشعر بالراحة بأنّ لك من يهمّه أمرك ولا ننسى خير الأنام بأنه قد وصّى بالجار، فإن كنّا جيرانا وجب أن نكون كالبنيان المرصوص في الفرح والقرح.

دلفت خليدة إلى غرفة أبيها والحزن ظاهر في عينيها، جلست على كرسيّه الهزّاز الذي كان يجلس عليه كل ليلة وقالت:

«آه يا سندي، آه يا ربيعي لقد رحلت أنت كذلك وبقيت عيناي في ظلام، كيف لي أن أعيش في بيت سوداوي وقد رحلت بهجته؟! آه من تلك الرّوح التي بين الثّرى»، دموع تسيل ولم تستطع إيقافها.. الدّنيا ضيّقة ولم تستطع أن تتنفس.. «أريد رؤيتك يا أبي!»، تنظر إلى صورته رفقة أمّها المتوفاة أيضا.. «لقد رحلتما».. احتضنت وسادته وشمت رائحة مسك أبيها التي بقيت عالقة هناك، تسطحت على سريره فإذا

بنار أشعلت في جسدها.. رعشة أصابت يديها!

طرُق الباب فإذا بهيثم يحتضنها ويخفف من ألمها..

– قدر الله يا حبيبتي علينا أن ندعو له، فلتفرحي لأنك تمكنت من رؤيته وعشت معه، تذكري آلاف النّاس الذين لم يروا آباءهم.. ريماس بحاجة إليك.

شيئا فشيئا نهضت خليدة واتكأت على كتف هيثم وراحت إلى غرفة ريماس لتجد رهف محتضنتها ونائمة.

مضت عشرة أيام على وفاته وظلت العائلة لأيام منغمسة في حزنها وكلّ يوم يأتي الجيران لمواساتهم.

ما بعد المحنة

مرت الأيام بسرعة البرق والأخوان متغيبان عن الدراسة، وفي صباح يوم ربيعي أعلمت خليدة ابنة أخيها بأن تبدأ في تحضير نفسها للذّهاب إلى الجامعة وقد قرّر هيثم أن تنتقل خليدة للعيش معهم في بيت واحد، أمّا هو فقد غادر البيت وذهب للعمل.

– رهف، محمد اجلسا الفطور جاهز.

– حسنا أمي سأرتدي ملابسي وآتي.

رائحة الخبز المحمّص تعم الأرجاء ومربى الفراولة وعصير البرتقال على الطاولة.. جلس الجميع بعد أن تناولوا فطورهم.. حدّقت رهف في مكان جدّها بصمت وكتمت حزنها خشية أن تنهمر الدّموع وتزيد من وجع أمّها، قبلت يد أمّها بعد أن دعت الله أن يوفقها هي وأخوها وفي طريقها أوصلت محمد إلى المدرسة، دخلت إلى الإدارة فوجدت هناك أستاذته التي استقبلته بترحاب وتعاطف..

– حللت أهلا، مرحبا بتلميذي المجتهد.

– شكرا لك، لقد تحسنت حالته.. وانصرفت لتلتحق بالمحاضرة، بينما رهف تمشي إذا بها ترى ظلّ شخص ضخم وراءها، ابتلعت ريقها والتفتت لتجد ذاك الشخص «زين».

– لماذا تمشي ورائي؟ هل تراقبني؟ قالتها وهي غاضبة ومكشّرة.

– اهدئي، لم تصرخين! وكأنني مجرم اعتدى عليك! جئت لأقول لك عظم الله أجرك، لقد أتيت إلى الجنازة رفقة صديقي ورأيتك مريضة فقلقت على حالتك..كيف حالك الآن؟

- شكرا، أنا بخير.. رضيت بقدري!

- هل أستطيع أن أرافقك إلى الجامعة؟

- لا بأس، تفضل.. ما اسمك؟ وأين تدرس؟

- اسمي زين، أدرس في السنة الثانية ماستر وهذا عام التخرج لي «تخصص علم الاجتماع».

- وفقك الله.

- وأنت من تكونين؟ سأل زين بحيرة.

- رهف.. تخصصي لغة وأدب عربي، أبي متوفى وأمّي ماكثة في المنزل ولي أخ صغير.

- حفظكم الله.

- وأنت؟

- تنّهد زين بخيبة مرسومة بابتسامة ثم قال: أبي تاجر، أمّا أمّي فقدتها منذ صغري ولي أخت تكبرني ممرضة وأختي البكر مغتربة في باريس... ها قد وصلنا، مضى الوقت بسرعة!

رهف: أتمنى لك يوما جميلا!

رد زين: ويومك أجمل.

شعرت رهف ببعض الارتياح بعد أن تحدّثت مع زين وكسرت قنابل الأسئلة التي كانت تخمن فيها، دخلت إلى الكلية لقسم الإدارة وبررت غيابها ولاقت هناك كلمات مشجعة لبداية أسبوع موفقة وتوجهت إلى المدرج لتحضر أوّل محاضرة لها بعد غياب طويل. كانت مريم قد حجزت لها مكانا بقربها بعد أن أعلمتها رهف أمس أنها ستأتي.

– تعالي، تعالي.

ألقت رهف التحية على مريم وطمأنتها أنها بخير.. شرع الأستاذ في شرح المحاضرة وكانت محاضرة شيّقة.

تحت أشعة الشمس الدافئة التقى زياد وزين وذهبا سويا لمناقشة بحثهما في المكتبة.. ترنح زياد وهزّ بيده، وحكّ جبينه وبدا أنه محتار فلاحظه زين..

– ما بك يا صاحبي؟ لمَ تنظر إليّ باستغراب؟

– رأيتك صباحا تمشي رفقة فتاة لكن لم ألمحها... من تكون؟

– إنها رهف.. قالها بصوت حزين يتخلله حنان واهتمام.

سأل زياد مستغربا: من رهف؟

– حفيدة الجد عمر.

رمى زياد القلم على الطاولة وقال: ماذا؟ ومن أين تعرفها؟

– منذ أيام اصطدمت بها وقد انتابني شعور غريب.. إني معجب بها!

ضحك زياد وبدت علامات التحفظ على وجهه...

– رأيت فتيات عدّة هنا فلماذا تمشي رفقة فتاة متحجبة؟ أنت تكره ذلك.

ردّ زين: انس الأمر ولنلتحق بتقديم البحث فاستعد.

زين البالغ من العمر ٢٣ سنة شخص اجتماعي يحب المرح كثيرا ويتذمر دوما من الدراسة لكن في وقت الجد يدرس جيّدا، أمّا زياد فهو يطمح لأن يكون ناجحا مثل أبيه الذي هو قدوة له بحيث أنه أستاذ

ناجح.

انتهى وقت المحاضرة خرجت مريم ورهف للتنزه في أرجاء الجامعة فقد كان الجو مشمسا.

- صحيح يا صديقتي.. لا ترددي في إخباري إن صعب عليك أمر... تفضلي نسخا من المحاضرات اقرئيها، ليست معقدة كثيرا.

- شكرا لك يا رفيقة دربي، لا أعلم كيف أكافئك على مساعدتك لي.

جلستا على الكرسي وأخرجت مريم بسكويتا وتقاسمته مع رهف، شردت البنتان طويلا وعمّ الصمت ثم قالت رهف: هل سأصل إلى ما أريد؟

فردّت مريم بابتسامة حلوة: ليس لديّ شكّ في ذلك يا ريحانتي، نسأل الله التوفيق.

رفع آذان الظهر..

- فلنلتحق بالصلاة يا مريم.

غرفة واسعة تفوح بعطر الإيمان وروائح المسك تعم كل الأرجاء ينشرح صدرك لشمّها، يحتويها نسيم هواء بارد ينبعث من تلك النّوافذ.. توضأت الصديقتان وقامتا للصّلاة... وبعد الانتهاء ذهبتا إلى القاعة أين وزع الأستاذ قوائم البحوث وانصرف الجميع.

بينما رهف تمشي نحو محطة الحافلة سمعت صوتا ينادي عليها فاستدارت لترى من المنادي، فوجدته أستاذها رضوان وكان في حديثه معها اطمئنان عن حالها، فالأستاذ ليس عمله التدريس فقط، بل هو سند لطلابه فمن الجميل أن يكون الأستاذ مواسيا ومشاركا لأحوال طلابه وستكون علاقة وطيدة بينهم.

- رهف، لا تدعي صغائر الأمور تهزمك إني على يقين بأنّ لك مستقبلا زاهرا ينتظرك وأنا بجانبك لا تترددي في طلب المساعدة.

ابتسمت رهف وقالت: شكرا لك يا أستاذ، دوما ما تشحنني بالطاقة الإيجابية، لقد أثلجتني فرحا، سأنصرف الآن.. أمسية سعيدة لك.

طرقت رهف الباب.. سمعته أمّها فهمت بفتحه..

- أهلا أمّاه.. أين عمتي وريماس؟

- لماذا تأخرت اليوم؟

- رافقني الأستاذ وتحدثنا.

- نائمتان، عمّتك متعبة قليلا.

- حسنا سأصعد إلى غرفتي كي أستريح.

- وأنا سأحضر لكم العشاء.

هداية من الله

تتصفح مريم حسابها على الفيس بوك كل مساء لتطلع على الأخبار وتغذي عقلها بمعلومات تخص دراستها، وغالبا ما تضع مقالات ومواضيع تخص الدّين الإسلامي، وكان لها عدد كبير من المتابعين المعجبين بسعة تطلعها وثقافتها بعد أن كانت بنتا بلا هدف لكنّ الصدفة التي جمعتها مع رهف أحدثت تغييرا جذريا في حياتها وبذلك انتقل فكر مريم من صحراء جافة إلى حديقة مزهرة وناضجة فصارت بنتا ملتزمة، فكانت من قبل تعيش فراغا روحيّا فتغيّرت حياتها للأفضل واستعادت ثقتها بنفسها بمساعدة رهف، فالله سبحانه يهدي من يشاء، فما أعظم أن يعيش الإنسان بين جناحي رحمته!

كان هناك شخص يتابع ردودها المحكمة ومناقشاتها، كل يوم موضوع جديد لكنّه لم يكن يفقه شيئا عندما تتحدث عن الإسلام الذي هو في نظره تجمع إرهابي وفوضى... جوزيف شاب يبلغ من العمر ٢٦ سنة يعيش في مدينة باريس الفرنسية، يعمل في إحدى الشركات وهو من أسرة تتمتع بالثراء، وأسرته تدين بالمسيحيّة. وفي أحد الليالي عاد من إحدى السهرات الصاخبة بجسمه المتثاقل ورائحة الخمر تفوح من ثيابه، فقرّر أن يستحم ليزيل التعب.

تناول أفراد أسرة رهف العشاء سوياّ وصراخ ريماس ورهف ملأ الأرجاء، وكالعادة ساعدت رهف أخاها على حّل واجباته، بينما خليدة وزينب تشاهدان التلفاز فإذا بهاتف خليدة يرن.

هيثم: أهلا عزيزتي اشتقت إليكم كثيرا

- ونحن كذلك، متى ستعود؟

– بعد أقل من شهر، وربما ستأتي أمّي كذلك.

– حسنا عزيزي لقد كلمتني البارحة وأخبرتني بذلك، تصبح على خير.

أغلقت خليدة الخطّ وراحت للنّوم برفقة ابنتها.

بينما جوزيف يتصفح هاتفه وقعت عيناه على كلمات «الإسلام دين يسر» وكانت الكاتبة لهذه الجملة مريم فأرسل لها رسالة لكي يتناقش معها حوله ولم يتردد أبدا، بالرغم من حرص وتنبيهات أمّه المشدّدة دوما على عدم فتح أيّ نقاش حول هذا الموضوع، لكن الفضول أصابه هذه المرة بشدة؛ بعد أن قبلت مريم الرسالة، عرّف بنفسه وتحدثا عن التكنولوجيا والتطور الذي يشهده العالم ثمّ بدأ يلمّح عن مقاصد ديانته ولحسن الحظ أنّ مريم كانت تمتلك معلومات عن ديانته فراحت تطلق البراهين كالصواريخ وكيف أنّ الإسلام له مزايا خاصّة وهي تهتف داخل قلبها «يا رب أعنّي، يا رب استودعتك أمري، كم تمنيت أن أكون سببا في إسلام أحدهم ولعلّ الله قد أجاب دعوتي».

الله معك دوما ويسمع ذاك الحوار الذي تحدث به نفسك، وحين تكون للمرء نية حسنة فإن الله يذيب له كلّ الصعوبات ويفرش له بساطا من الورود ويسهل له ما كان يراه مستحيلا فكما قيل «وعلى نياتكم ترزقون».

مرّت أسابيع ومريم تناقش جوزيف بكلّ شفافية ورهف مع أجواء الدراسة، وزياد وزين يقضيان الوقت في الجامعة وممارسة الرياضة. بدأ جوزيف يهتم بكلّ ما قالته مريم ويسأل أمّه لكنّها سرعان ما تتحوّل لبركان ثائر من الغضب وصارت تخشى اعتناقه لهذا الدين.

ليلة ممطرة وعواصف في الخارج ونباح الكلاب عمّ أرجاء الشوارع؛

صار جوزيف ينتظر بفارغ الصبر تلك النقطة الخضراء التي على شاشة هاتفه لتعلن عن قدوم مريم؛ وبعد جهد مبذول منه في بحثه عن الإسلام اختلطت مشاعر غريبة في قلبه وصارت له قناعة لتركه دينه.

ما حالنا نحن المسلمون نقرّ بالإسلام دينا لكنّنا لا نطبق تعاليمه، إنيّ على يقين لو أنّ كلّ أسرة تلتزم بما جاء به نبيّ الأمّة لعمّت السعادة ولتحققت العدالة، لكن هيهات.. ابتعدنا عن ديننا فأضحت أرواحنا متعبة، إنّ الله رحيم بعباده وبنوره يهدي من يشاء وها قد قذف الهداية وحب الإسلام في قلب جوزيف.. للوهلة الأولى دمعت عينا جوزيف بعد أن ذهب إلى مسجد قريب في مدينته وردّد الشهادة بقلب طاهر، تلقى معاملة حسنة من الإمام وفرحة عامرة في أوساط المسلمين الذي كانوا هناك من كل مكان، وقد سرّ الشيخ به كثيرا فعانقه وبارك له، ومضى جوزيف في طريقه وصار المسجد المهدّئ لنفسه والإمام ملازما له في كل يوم يحدثه عن ركن وموضوع جديد.

فتح جوزيف بريده معلنا إسلامه لمريم..

– آه يا مريم ما أجمل القدر الذي جمعني بك! أحس الآن أنني ولدت من جديد، وقلبي أشعر بدقاته مختلفة تماما عن ذي قبل، لقد عمّ السلام جسدي.. يا الله إنها ليلة رائعة!

فرحت مريم بذلك كثيرا وسالت دموعها من شدة الفرح... مضت الأيام وجوزيف يبحث ويقرأ ويستفسر دون كلل أو ملل بعد أن تفادى كل السهرات والملهيات صار يشع من وجهه النّور والكلّ متعجب من حالته ولم يستطع مفارقة القرآن الذي جعله في سكينة ووقار، دام التواصل بينهما وقرّر جوزيف عرض الزّواج عليها بعد أن يرتب أموره.

غادر جوزيف بيت أهله واستأجر شقة قريبة من عمله وبقي وحيدا لكنّ الله معه بعد أن طردته أمّه ولم تسمح له بالمكوث تحت سقف واحد، وصار جوزيف قرير العين منشرح القلب.

رهف ذات العشرين ربيعا أشرقت الحياة بقدومها وكانت فأل خير على عائلتها، شرفات المنزل كلها مزينة ببشاشتها ومشاغبتها التي لا تنتهي، طويلة هي بطول أخذته من الشجرة وتجمّلت بنحافة الجسم، فكلّ الثمار التي تحيط بها وأوراقها تمنحها حلة حساسة، وتخاف على من تحب ولا تتمنى أبدا أن يمس جدرانهم أي أذية، صغيرة هي بأحلام وردية تعيش حياتها بتقلب المشاعر، تارة تجد الورود أمامها وتارة أخرى تهبّ رياح عاصفة لكنّها تظلّ صامدة وقوية بحب الله.

يوم مشمس وجوّ هادئ تحت سماء صافية وغيوم تسبح في السماء الزّرقاء الواسعة، تمشي رهف متوجهة إلى الجامعة بعد أن انقضى يوم العطلة الأسبوعيّة، فإذا بها تصادف فتاة طويلة ذات شعر أشقر مرتدية سروال جينز ضيّق وقميصا ورديا مزركشا، واضعة في كلتا أذنيها سماعة تخرج منها دندنات موسيقيّة عالية.

– أنت توقفي مكانك.. منذ أيام وأنا أراقبك.. ابتعدي عن زين لأنه لا يتناسب مع أمثالك، أنت درويشية بائسة وقد حذرتك!

اندهشت رهف من كلامها لكن ضبطت أعصابها وأجابت بكل هدوء:

– كل ما قلته كلام خثرود، لا تدعي غضبك يسيطر عليك وإلا ستخسرين.. وانصرفت.

بقيت تلك الفتاة تشتعل غضبا في مكانها وشرارة الحقد اشتعلت بداخلها. التقت رهف ومريم أمام باب الكلية وكانت مريم مسرورة،

لكن رهف وجهها شاحب فسألتها مريم:

- حبيبتي، ماذا هناك؟ هل حدث شيء ما؟

- لقد واجهتني فتاة يا مريم ومظهرها لا يبشر بالخير أبدا، قالت لي أنها تحب زين وطلبت منّي الابتعاد عنه، لكنّي لم أقترب منه جمعتنا الصدفة فتحدثنا مرتين فقط!

ردّت مريم: ومن يكون هذا؟

قاطع زين حديثهما: عن ماذا تتحدثان؟ صمتت رهف وانصرفت.

وصلت رهف إلى البيت فوجدت خليدة تخيط أثوابا لرياس فسرّت بذلك.

- لقد كان من الجيّد أنك انضممت إلينا يا عمتي، ووجود رياس أضفى على البيت نورا وسعادة.

ضحكت عمتها وردت قائلة: سأخيط لك فستانا جميلا.. ولأمّك أيضا.

- شكرا لك عمتي.. متى سيأتي العم هيثم؟ لقد طال غيابه.

- اتصل بي منذ أيام وأخبرني أن عملا طارئا صادفه، يكمله ويأتي.

- إن شاء الله قريبا يكون بيننا.

أدّت رهف صلاة المغرب وبدأت بكتابة البحث الذي أعطته إياها مريم، ومن شدة تعبها لم تشاركهم المائدة، فنامت.

في الصباح رافقها محمد وأوصلته إلى المدرسة وطبعت قبلة على خديه..

- يوما جميلا يا صغيري.

- نلتقي في المساء يا أختي.

بينما هي تمشي وجدت زين يقف منتظرا وعلامات الحيرة بادية على وجهه وعيناه متعبتان.

- أهلا يا رهف، أمهليني من وقتك دقائق فقط، أريد أن أعرف لماذا ذهبت البارحة ولم تتحدثي معي؟

- لا تتكلم معي، واغرب عن وجهي وإلا جمعت النّاس عليك!

- لا تذهبي رجاء، هل أسأت إليك؟

ردت رهف: أووه، وفوق كل هذا تسألني؟ إنك شاب وقح! اذهب عند حبيبتك هي بانتظارك وفي طريقك لا تنس أن تأخذ لها باقة ورود! قالتها رهف بسخرية وقلبها يتمزق.

ردّ زين ووجهه يشتعل غضبا: ما الذي تهذين به يا رهف! عن أي حبيبة؟!

- حقا، إنك تستفزني كثيرا... صمتت رهف.

- صمتك يخيفني، أخبريني ماذا يحدث؟ فوالله إني لا أفهمك.

- أتت بنت البارحة وحذرتني من الاقتراب منك.

- هل تعرفين من هي؟

- ذات شعر أشقر!

زين: آه، تلك الحمقاء! منذ أن كنت صغيرا وهي مهووسة بي، كانت صديقتي في الحيّ ثمّ انتقلت إلى حيّ آخر، لكن ليس لي أيّ صلة بها

ليست حبيبتي صدقيني، أوّل فتاة تحرك مشاعري هي أنت يا رهف أنت!

تعجبت رهف من قوله وبقيت مسمّرة وهي واقفة، ذابت ملامح الغضب التي كانت على وجهها وتوردت وجنتاها، بينما زين بقي ينظر في الأرض وتلعثمت كلماته وبدا الارتباك جليّا على وجهه.

- أعتذر.. تسرعت في الحكم... ثمّ قالت وهي تنظر إليه: وما الحل؟ هل ستبقى تطاردك طوال الوقت؟!

كتم زين ضحكته وقال: ولماذا الغيرة؟ لا تقلقي سأضع لها حدا ولن تزعجك مرة أخرى... وأخرج من حقيبته بسكويتا وقال: تفضلي، أصوات معدتك أسمعها الآن.. أخبرتني مريم أنك تحبينه.

رفعت عينيها بدهشة وصرخت: ماذا قلت؟ مريم! ومن أين تعرفها؟!

- ألم تخبرك؟ لقد تحدثنا البارحة عندما انصرفت أنت، أخوها المتوفى كان من أقرب الرجال الذين يعملون مع أبي، لذا أنا أعرف أسرتها.

هل وقعت في حبه؟

حينما يجتاح قلبك شعور غريب، شعور لأول مرة يصعب عليك فهم ما آلت إليه نفسك، فإنكّ تحب دون أن تعلم وتغرق وتغرق دون أن تجد يدا تنقذك، هكذا هو الحب دقة قلب تغير المسار، فالله عز وجل يقذف الحب في قلب من يشاء، فلا تسأل محبّا لماذا أحب!

أصاب التوتر رهف ولم تستطع أن تتكلم في تلك اللحظة، تكلمت العيون وتسارعت النّبضات وسرح زين مطوّلا في عيني رهف بعينين براقتين وكلمات عجز التعبير عن إخراجها.

– آه.. أعتذر... سأنصرف الآن.. مع السلامة.

– لا بأس يا رهف.

تمنى زين لو طالت تلك اللحظة لقد ملكت رهف قلبه.. ارتبكت رهف من تلك النّظرات واتضحت لها الصورة، فلغة العيون لا تكذب أبدا! وانصرف كل إلى كليته.

دخل زين القاعة بعد أن ألقى التحية على زملائه.. وقاطع زياد صمته..

– ما بك يا رجل؟ لمَ أنت شارد؟ إنكّ غريب الأطوار هذه الأيام!

استفاق زين من شروده الطويل وأجاب: أنا بخير.. متعب فقط.

فردّ زياد معلقا: أظنّ أنّ تلك البنت جرفتك إلى تيار آخر.. وضحك.

فردّ زين وهو يحدّق في عيني زياد: ولمَ الكذب، لقد أعجبت بها كثيرا وصارحتها بحبي!

تعجب زياد من قول صديقه لأنهّ يفهمه جيّدا، وانتابت الحيرة عقله لأنّ زين ليس له علاقة حسنة مع الجنس الآخر، فبقي يتساءل! ما هو الشيء المميز في رهف؟!

ثم عاد إلى الدرس...

كان الحضور غفيرا في المحاضرة والكلّ منتبه للأستاذ إلا ذاك القلب القاسي الذي قد لان وبقي مستمرا في شروده إلى أن قطع زياد ذاك الصمت..

- قم! لقد أنهينا الدرس، ولسوء الحظ أنك كنت خارج الدرس تماما.

- أريد أن أبقى لوحدي يا زياد فلا تغضب مني، إلى اللقاء.

- إن احتجتني فاتصل بي.. رافقتك السلامة.

انصرف زين إلى منزله وألقى بجسمه على السرير وأغمض عينيه وبدأ يربط الأحداث ويفسر ماذا يحدث حوله!

هي الأخرى تائهة.. ظلت تفكر حتى سألت: نفسها أتراني أحببته؟ لمَ خفق قلبي؟ لم شعرت بذلك الشعور الغريب؟! ثمّ قرّرت أن تنام لعل ذلك الضّجيج المدوي يرحل عنها.

بعد أن أكملت مريم مشاهدة برنامج ثقافي رفقة عائلتها راحت إلى غرفتها وشرعت في قراءة الرسائل الإلكترونية لتجد رسالة من جوزيف.

«عزيزتي مريم، لقد اشتقت إليك كثيرا لا أعلم متى ستكونين معي، لكنّي أعمل بجد كي أستقبلك في منزلي وتتربعين فيه يا أميرة قلبي.

لقد بدأت أتعلم اللغة العربية وأحببتها كثيرا، وهذا بفضل الله عز وجل وبفضل تشجيعك لي، كتبت سطورا فأخبريني ما رأيك:

كانت الحياة صحراء قاحلة فشاء الله أن يفجر ينبوعا فكان ماء عذبا ودبت الحياة من جديد بقدوم محمد خير البشر.. قيل عنه أنه ساحر ومجنون فصبر وتحمل، آمن به الصديق وآوته أم المؤمنين، أسلمت القلوب وبكت العيون فبنى الحضارة ومجد الإسلام، فأشرقت الوجوه وانتشر السلام، وأحبّه الصحابة الكرام، دعا إلى الخلق الفاضل ونهى عن الخلق السيئ، أعطى دروسا بالمجان وأذاب تلك القساوة بحسن خلقه كما أذاب الله الحديد لعبده داوود، نصر الضّعفاء وكان من الفقراء البسطاء ما أعظمه! فكان كلّ من حوله من السعداء لا الأشقياء، وأنت انتشلتني من بقعة الضّلال لروض الهداية والإسلام، أنت كرسول أضاء لي حياتي وأعاد بسمتي إني أحس بسعادة لا توصف، الحمد لله أن رأت عيناي هذه الأيام، أعدك أني سأبقى أبحث وأبحث إلى أن أتفوق عليك، أشكرك يا خير من لاقتني به الأقدار».

اغرورقت عينا مريم بدموع ساخنة فراحت تمسحها وأرسلت له رسالة:

– انفطر قلبي، أيا حبيب قلبي.. وعبّرت مريم عن شعورها اتجاهه وكانت ليلة لا تُنسى ونام الاثنان بسلام.

في الصباح استيقظ محمد باكرا واغتسل وذهب إلى غرفة أخته كي يوقظها..

– هيا، أيتها الكسولة، قومي لقد وعدتني بأن تأخذيني في نزهة.. فتحت رهف عينيها بصعوبة وقالت:

– مازلت متذكرا أمر النزهة أيها المشاكس!

وتعالت ضحكاتهما، عانقته ولعبت معه ثم قامت لتحضر نفسها.

- جهز نفسك أيها العمدة.

وتحمس محمد للخروج، دخلت زينب إلى غرفتهما بعد أن سمعت الضجة من المطبخ وقالت:

- إني أرى الأرنوبة وابنها في سعادة ما الأمر؟ هل هناك حدث أجهله؟

ضحكت رهف وقالت: سأصطحب محمد في نزهة...

احتضنتهما وأمطرتهما بدعاء في الصباح، وما أجمله من دعاء من عند التي تحت قدميها الجنة!

«إنها الأخت، الأمّ الثانية والحضن الحنون، العضد المساعد وموطن آخر لا تشعر فيه بالغربة، الباعثة الأولى للسعادة بين تلك الجدران، النسخة الثانية من الأم، هي نعمة لا يعوضها الزمن بأي ثمن، المؤنسة الغالية فرفقا بها! فبيت دون أخت كأنّه مقبرة».

ابتسم محمد والفرحة تبدو على وجهه وقال بكلمات حنونة: أختي، أحبك كثيرا، أحبك يوما وشهرا ودهرا!

احتضنت رهف أخاها بقوة بعد أن لامست كلماته قلبها الرهيف.

- الحمد لله أن لي أختا مثلك.

فردت رهف: يا بطلي الجميل.. سأبقى معك رفيقة لقلبك ورقيقة لقلبك.

بعد أن تناولا الفطور سويا طلبت رهف من عمتها أن ترافقهما ريماس في النزهة كي تغير الجوّ فجهزتها ثمّ انطلقوا.

تداعب رهف وجنتي ريماس وتبتسم لها والصغيرة بادلتها الابتسامة..

«ما أجمل براءة الأطفال الصغار يزيحون هما ويبعثون السعادة في كل مكان يذهبون إليه!»

تمشي رهف باستحياء بينما محمد مسرور جدا بالجوّ الجميل، بعد أن وصلوا إلى الحديقة والتقى بأصدقائه، اكتفت رهف بالجلوس فوق كرسيّ تراقبه من بعيد وفي حضنها ريماس، أفكار مكتظة بعقلها تراقب السحاب وتطلق تنهيدات طويلة.

شردت قليلا وتذكرت أيام نعومة أظافرها، تذكرت الذراعين اللذين احتضناها..

«ألم فراق الأب موجع لأن الأب هو الوحيد الذي يدلل ابنته.. الفراق يذيبنا كتلك الشمعة الوحيدة في الظلام.. رهف تتظاهر بالسعادة دوما، أبوها هو السرّ الجميل الذي تخفيه تحت تلك الأضلع وهو الذي نقشت اسمه في مذكرتها وهو الذي تحتضن اسمه بالدعاء في كلّ سجدة، هو تحت التراب يشرب الماء وتتهافت الدعوات باسمه.. منه تستمدّ القوة لتواجه العالم بصعوباته، وتصارع الأمواج العاتية، كشمس تشرق كل صباح، هو الشفاء لكلّ الأسقام.. باختصار: الأب هو الموطن!».

ارتفعت أصوات البراءة.. واشتدّ الجرح بقلبها فهي هشّة من الداخل ثابتة المظهر، حكيمة في اتخاذ القرار.

يرتدي سروالا أسود اللون ويضع نظارات على عينيه السوداويتين وقميصا أبيض بخطوط زرقاء، يزين صدره مفتول العضلات، إنّه زين. ممسك الجريدة ومنغمس في القراءة تحت أشعة الشمس الساطعة وفجأة رنّ هاتفه فأجاب:

- نعم يا أريج، خيرا؟

- أرسلت لك رسالة بها بعض الأشياء للمنزل فأحضرها في طريق عودتك.

- حسنا أختي.. وأغلق الخط. رفع رأسه فإذا هو يلمح رهف بالقرب منه وهي تداعب ابنة عمتها بابتسامة جميلة، فبقي يحدق في تلك الابتسامة الساحرة والملامح البسيطة والبشرة السمراء البهيّة ثمّ توجه نحوها..

- أهلا!

استدارت رهف لتجده أمامها فقالت: آه منك، كالظلّ تلاحقني!

ردّ قائلا: من تكون هذه الصغيرة؟ وماذا تفعلين هنا!؟

فحمل ريماس بين ذراعيه وقبّلها إلّا أنّ ريماس نفرت منه وبدأت تبكي.

قالت رهف: يبدو أنها لم تألفك ونكرتك!

- أمسكيها كي لا تبكي أكثر.

ضحكت رهف وسرعان ما توقفت ريماس عن البكاء بعد أن ضمّتها إلى صدرها.

- آه.. كنت قد سألتني، لقد وعدت أخي بنزهة وها قد أتيت به ليغير الجوّ.

- كيف حال عائلتك؟

رهف: بخير، الكل منشغل بعمله.

– متى موعد الامتحانات؟

– بعد أسبوع.

زين: يا للهول! الوقت يمضي بسرعة، أنا وصديقي منشغلان بإنجاز المذكرة.

رهف: وفقكما الله، هل تحتاج مساعدة؟

زين مبتسما: كوني بخير فقط.

نظر كلاهما إلى بعض لمدّة، تمتم زين بكلمات في نفسه: آه لو تعلمين أنك غزوت قلبي!

استفاقت رهف من شرودها بعد أن أتى محمد..

– أختي، من هذا الشاب؟

ارتبك زين وبقيت رهف واقفة وريماس صامتة كأنّ المنظر أعجبها.

زين: أنا زميل أختك في الجامعة، وأسرع لإخراج حبات الحلوى من جيبيه ولطف الجو وكلاهما ينظر باستغراب!

رهف: هيّا يا محمد، يكفي لقد لعبت كثيرا واستمتعت، لنعد إلى البيت.. وافترق الاثنان وكل واحد منهما سلك طريقا.

دق الباب، اتجهت خليدة لكي تفتحه فاندهشت لرؤية هيثم وأمّه واستقبلتهما، بعد عناق طويل وتحيات متبادلة..

خليدة: لماذا لم تخبريني يا أمّي لكنت جهّزت كل شيء لاستقبالك.

– أردتها مفاجأة لك.

أتت زينب ورحبت بالضيوف في الطابق السفليّ وجلسوا جميعا

يتبادلون الأحاديث..

هيثم: أين هي ريماس، هل هي نائمة؟

خليدة: لقد نسيت أن أخبرك، اصطحبتها رهف في نزهة مع محمد.

هيثم: لقد اشتقت إليها كثيرا.

- لا تقلق، ستعود قريبا.

أحضرت زينب عصيرا وقطع الحلوى التي صنعتها في الصباح وتبادلوا أطراف الحديث إلى أن قطع صوت جرس الباب حديثهم.

قالت خليدة: لا شك أنّها رهف.. وقامت لفتح الباب.

- أهلا عمتي، لقد تأخرنا قليلا، هناك ضجة في الطريق إني أسمع كلاما كثيرا ألدينا ضيوف؟

- أجل، لقد أتى هيثم وأمه.

دخلت رهف ومحمد وبرفقتهما الصغيرة ليسلما عليهما ولما رأت ريماس أباها التصقت به وهو بدوره قام بحرب قبلات عليها، وقدّمت أم هيثم ملابس وشوكولاتة لرهف ومحمد وقد فرحا بذلك كثيرا.

كانت أمسية جميلة.. فأجمل ما في الحياة لمة عائليّة، وجوه ضاحكة مستبشرة لا تبخل بابتسامة أو حضن دافئ.

حضّرت زينب وخليدة عشاء فاخرا، أمّا هيثم فقد نام مع ابنته بعد تعب طويل، واكتفت أمّه بالجلوس في الفناء مع رهف ومحمد، وفي المساء شاهد الجميع برنامجا فكاهيا وتعالت ضحكاتهم وتعليقاتهم وريماس قد شاركتهم تلك البهجة أيضا وبدورها زادت من فرحتهم جميعا بحركاتها اللطيفة.

«فعلا للبراءة فرحة خاصة تجعلك تضحك لا إراديا فالبيت بوجود الصغار جنّة فوق الأرض وعشق لا ينتهي».

مضى أسبوعان من بداية الامتحانات الفصلية لهذه السنة، فاجتهد محمد وساعدته أمّ هيثم بخصوص مادة الفرنسية، بينما رهف انعزلت عن الجميع وحضّرت نفسها جيّدا رفقة مريم بمراجعة جماعية كلّ مساء خلف تلك الشاشات الإلكترونية، دون أن تنسى الاعتناء بأخيها.

«يجتهد البعض، ويتكاسل البعض ولابدّ من النجاح الذي هو ثمرة جهود مبذولة، كي تحقق هدفك عليك أن تتعب والله لا ينس تعب أحد».

بتوفيق من الله تحصل محمد على المرتبة الأولى في قسمه ونال شهادة امتياز وبذلك قد انتقل إلى السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، أمّا رهف ومريم فقد وفقتا في الانتقال إلى السنة الثانية من التعليم الجامعي.

وتحت تصفيقات الحضور وزغاريد الأمّهات.. أجواء مفرحة بنصر النّجاح قد ارتدى زياد وزين لباس التخرج وأنهيا دراستهما بتقدير حسن وقرّر زياد إكمال الدكتوراه في الجامعة، أمّا زين فقد التحق بعمل في أحد المتاجر، وقرّر الانضمام لمعهد اللغات التابع لجامعته لتعلم اللغة «الإنجليزية».

أمّا جوزيف فقد تحسنت أوضاعه في باريس وصار له أصدقاء كما أعجبوا بثقافته الواسعة في ظرف وجيز وواصل عمله وجِدّه بالرغم من تذمر عائلته منه لكنّه لم ينزعج، فيوما ما سيسلكون الطريق الذي سلكه، يكفي أنه يحتضنهم بالدعاء دوما بالرغم من إساءتهم له.

«ألا ترى أنك بين يدي الله، فكلما دعوته وجدته أينساك؟ فحسن الظن بالله يحقق لك ما تتمناه وأكثر.. فاحمد الله على نعمة النّجاح واشكره لأنك تتعلم، فالكثيرون في بقاع الأرض مازالوا أميّين».

المكيدة

نضجت ثمار المشمش اللذّيذ لتعلن عن بداية قدوم فصل الصيف الرائع، ففي كل عطلة صيفيّة تلتحق رهف بالمدرسة القرآنيّة التابعة للحيّ الذي تسكن فيه، نشأت وترعرت بين أحضان جدرانها الشامخة وتحت تعاليم أستاذها الفاضل، لكنّ المظاهر كثيرا ما تخدعنا، فليس كلّ ما نراه صحيحا، فأحيانا حواسنا تخطئ في إصدار الأحكام على أيّ شخص، في كلّ شخص شيطان يقبع هناك والنّفس أمّارة بالسّوء فإن لم يتحكم الإنسان بنزوات نفسه سيجرفه التيار إلى ما لا يحمد عقباه، والإنسان بطبيعته ضعيف لكن قوّة إيمانه بربّه تجعل منه شخصا قويا.

مضت أسابيع ورهف تذهب رفقة مريم وأصدقائها لقراءة القرآن الكريم وحفظه والتفقه فيه، وكانت ذات الشعر الأشقر قد حفظت مواقيت دخول وخروج رهف من هناك، فقرّرت الانتقام منها بطريقة بشعة تحطم فيها كل آمالها، لكن لا يحدث شيء دون إرادة الله.

تنحدر كاميليا والتي يطلق عليها ذات الشعر الأشقر من أسرة تعيش في رخاء تام منفتحة ولسانها بظرير، شحيحة العاطفة متبخترة وأهلها لا يسألون عنها فكلّ واحد ألهته الدنيا، وربّما خرجت إلى الشوارع لتبحث عن الحنان لكن الشارع لا يرحم أحدا، فكلّ الحنان موجود في الأسرة فما حاجتنا للأسرة إن كان حقا الأمان في الشارع؟! وكثير من الشبان والبنات قد ضلوّا الطريق بسبب زواج الوالدين الفاشل الذي يعود بالضرر على تربية ونفسية الأولاد نتيجة عدم تحمل المسؤولية.

التقت كاميليا بالرجل المدعو جون في شارع يخلو من المارة وأعطته مبلغا مغريا على أن يغتصب الفتاة، وهذا الفعل سببه الغيرة والحقد

اللذان اجتاحا قلبها وجرداها من الإنسانية بسبب شاب قد أحبته وهو لا يحبها، كاميليا قد اتجهت نحو الاغتصاب وكثير من أمثالها يتجهنّ إلى ممارسة طقوس الشعوذة وهؤلاء عندهم نقص الوازع الديني وأمراض نفسية كحب الامتلاك والنرجسية.

وافق الرجل على العرض واتفقا وشرحت له بعض التفاصيل وزوّدته بمواقيت ذهابها إلى هناك فمنحته نصف المبلغ على أن يكمل عمله لتعطيه ما تبقى.

دخلت رهف بعد صلاة الظهر إلى المدرسة القرآنية وكان يتبعها ذاك الشيطان لكنّها لم تلاحظه، فبقي يراقب المكان عن مقربة من هناك، فالمدرسة تقع في مكان خالٍ من السكان.

«إنّ أعظم ما يمكن أن يفعله المرء أن يسلم قلبه لربه ويقُبل على حفظه لكتاب الله، إنها راحة لا توصف فقد صدق الله حين قال: «أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» الرعد ٢٨، فينزل الله منّهُ وبركاته عليك».

ها هي رهف تخرج بعد أن زوّدت عدّادها بحسنات كثيرة وراحة كبيرة وافترقت عن صديقاتها فكل منهنّ تسلك طريقا إلى بيتها، تمشي ببطءٍ بحجاب أسود فضفاض حاملة حقيبتها وجون يتبعها وينظر خلفه، فوجد الشارع خاويا تماما مما ساعده على الإقبال على ارتكاب جريمته الّشنعاء، قاطع طريقها بجسمه الضّخم وعضلاته المفتولة ونظرات عينيه الشريرة وقال:

– أريدك أن تذهبي معي، إحداهنّ أعطتني أمانة لك، فتعالي لكي تستلميها.. تعجبت رهف من قوله فليس من عادتها أن يقاطعها شخص ويتحدث معها فقالت:

– ابتعد من فضلك، إن كانت هناك أمانة فأظنّ أنها تعرف مكان بيتي

فتأتي بها إلى هناك، وإن كانت موجودة حقا فلماذا لم تجلبها معك؟

تغيّرت ملامح جون وصار يحُكّ شعره ويفكر فيما سيقوله، تلعثم لسانه وبدأ يقترب منها شيئا فشيئا إلى أن حاصرها في زاوية ضيقة ودقات قلبها تتسارع خوفا، وحاول إخراج منديل مرشوش بمخدر كانت قد أعطته إياه كاميليا كي يتمّ مهمته بنجاح، فحاولت رهف الصراخ والعرق يتصبّب من وجهها وهي تحاول الإفلات منه وهو يقترب بكل قذارة، نظرت إلى الأرض فوجدت قطعة خشب صلبة فأمسكتها ووجهت الضربة إلى رأسه، وبدأت تصرخ وتستغيث فزاد هيجانه وغضبه فأمسكها من رقبتها وكاد يخنقها، استجمعت شتاتها وقلبها المفتت الجريح وصرخت صرخة قوية ودفعته والدموع تسيل من عينيها..

– يا لك من إنسان بلا ضمير اتركني، اتركني! ساعدوني، ساعدوني!

– اصمتي وإلا سأقتلك

بمشيئة الله أرسل الله عبدا من عباده كي ينقذها، إنه أستاذها رضوان بعد أن سمع صوتا صادرا من هناك وكان مارًا من نفس الجهة وكأنه ألف الصوت لكن لم يعرف من يكون صاحبه، فأسرع بخطواته ليجد جون بجسمه الضّخم واقفا أمام رهف فأمسك بقطعة الخشب تلك وضربه على رقبته فأسقطه أرضا، بينما رهف سقطت أرضا من صدمتها وخوفها الشديد وشرعت بالبكاء لا إراديا ورضوان لا يعلم ماذا يحصل، فهدأ من روعها وبقيت قطرات الدموع ملتصقة بين أشفار عينيها.

– ابنتي تفضلي الماء اشربي وهدّئي من روعك، الحمد لله لم يحصل لك مكروه لا تخافي، أنا بجانبك.

بقيت رهف جالسة على الأرض ولم تتحدث بكلمة، اكتفت بالبكاء بصمت فقط من هول خوفها.

اتصل الأستاذ بالشّرطة فوصلت في وقت قصير وأخذت المجرم إلى المركز ورهف والأستاذ أيضا من أجل أخذ إفادتها.

طرح المحقق بعض الأسئلة عليها فأجابت لكنّها لم تكن تعلم أنّ ذات الشعر الأشقر من خططت لكلّ شيء، وانصرفت رفقة أستاذها مباشرة إلى البيت.

«رصاصة أخرى قد أصابت ذاك القلب المسكين فزادها ألما ودمارا، فما كانت تلك الدموع إلا تعبيرا عن حال شظايا قلب محترق!».

رافق رضوان رهف بسيارته وقد تأخر دخول رهف إلى المنزل بساعة، وكانت أمّها تنتظرها فقد حاولت الاتصال بها لكنّها تركت هاتفها في البيت.

طرق الباب فأسرعت زينب بفتحه فوجدت رهف بحالة حرجة..

– ما بك؟ لماذا تبكين يا ابنتي؟ أستاذ رضوان! خيرا ما الذي يحدث أخبرني أرجوك.

سمعت الحديث خليدة فأقبلت تاركة ريماس في غرفتها والدّهشة والقلق باديان على وجهها..

– لندخل أولا يا خالة وسأشرح لك ماذا حدث.

جلس الجميع في غرفة الجلوس وأبقت خليدة محمد مع ريماس، وقد تمالكت رهف أعصابها ولم تنهر أمام أمّها كي لا تزيد مواجعها.

رضوان: لقد حاول أحدهم الاعتداء على رهف ولحسن الحظّ لحقت

بها في اللحظة الأخيرة.

صرخت زينب: ماذا؟ ومن يكون! آه يا إلهي ما هذه المصيبة!

ينبوع من الدموع انفجر من عيني زينب وغضب مشتعل على وجه هيثم أمّا عمّتها فأصيبت بصدمة، بعد أن قصّ الأستاذ القصة على الأهل استأذنهم وطلب من رهف البقاء في البيت لأيام إلى أن يتبيّن مَنْ أقدم على هذا الفعل.

انصرف هيثم إلى مركز الشرطة ليستفسر عن الحدث، بينما رهف استحمّت بعد أن قدّمت لها عمّتها مشروب أعشاب يجعلها هادئة.

بقي الكلّ في غرفته ولم يغمض لهم جفن وقد أتى هيثم لكن لم يستطع معرفة من الفاعل فالتحقيق متواصل مع المجرم، توضأت رهف وبقيت تدعو على سجادتها بدموع صامتة وقلب منكسر وإرهاق يئن بها جسدها على أن يجبر الله قلبها ويمدها بالقوة قائلة:

«يا رب ها أنت ترى مكاني وتسمع كلامي، وأنت الداري بحالي، رضيت يا إلهي بما كتبته لي فارزقني الصّبر على التحّمل، أعنّي يا رب على تجاوز هذه المحنة ولملم شتات قلبي فليس لي سواك، يا لطيف الُطْفْ بحالي وارزقني راحة البال يا رب العالمين، يا رب ارحم ضعفي وقلة حيلتي، يا عليما بذات الصدور اصرف عني شر خلقك».

ظلت تدعو بقلب خاشع وروح متعبة ثم أخرجت مذكرتها وقلبت الصفحات ثمّ نظرت إلى السماء بنظرة حزن وتنهدت وبدأت تكتب عما يختلج بقلبها..

- آه! ليت تنهيدتي يخرج معها هذا الشعور القاسي، يوم مشؤوم سيبقى بذاكرتي، أرادوا أن يسلبوا مني شرفي وهو أغلى ما أملك، إنسان

بلا ضمير تغلبت عليه شهوته وحرضوه عليّ، ألم يرتجف قلبه ولو قليلا؟! سيذيق الله الظالم مرارة فعله... سأبقى صابرة مصطبرة على الألم الذي يكويني، ليتني عصفور أحلق في السماء ولا أرى المجرمين والأعداء، لكنّي بحضرة ربّ السماء مجيب الدعاء وناصر الضّعفاء؛ جرح آخر بقلبي قد غُرسِ، بِتُّ متعبة... ليالٍ عاصفة، أحلام مبعثرة، طرق شائكة وقلوب منكسرة، عيون باكية وأصوات ترتجف، سهام الخيبات يعلو، نار الأحزان مشتعلة، حريق يشعل مهجتي ضجيج يعلو شراييني... أرادوا قتلي وأنا في عزّ الشباب! ذقت الويلات وأنا في سن العشرينيات... آه، آه، آه من الطعنات!

أيا نفسي قد علمتك كيف تضعفين في تلك الليالي الحالكات، فأنا وأنت لسنا من المستسلمات، سنمضي ونمرُّ معا على كل تلك الصعوبات، سنبقى من زمرة الصّابرات فلن تسقطنا الأفاعي السوداء، وسيقعون في فخ «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» الأنفال ٣٠، ستبقين يا نفسي محبة للحياة بكل الألوان، بالطبيعة والأزهار والنّجوم، سننشد أحلى الألحان ونردد تعويذات القرآن، لنسقي كل ظمآن.

ستتألمين ثم تتأقلمين وكل ألم يولد قوّة، أنت جميلة بوحيرد في الصلابة والصمود فلن نسمح لشبح الفشل بأن يضعفنا فأنت الدّاء والدّواء لروحك كطائر العنقاء المحلق في أعالي السماء الزّرقاء، فمازلت تتنفسين بأوكسجين حسن الظن برب الناس.

انحدر الدمع من جفونها وكلمت نفسها: سأواسي نفسي بنفسي، سيمرّ هذا المرّ، لن أضعف، لن أضعف... ممسكة بقلبها وغصّة كبيرة بداخله وأضافت على تلك الصفحة:

تجمع كل شيء بفؤادي وصار كالفيضان، بقي لي سوى أوراق سأملأها بكلّ الأسباب، لم يكونوا وحوشا بل ذئابا، جلبوا ميكروبا كالذباب وأرادوا تعكير مزاج العباد، قلوب دنست بالحقد، أين الإنسانية؟ لماذا لا نعيش في حب وسلام؟!

أغلقت مذكرتها وختمت خربشاتها بابتسامة بالرغم من كلّ الوجع والقهر الذي تعانيه، اختلطت كلّ مشاعرها بين شوقها لأبيها وجدّها وحرقتها على ما حصل اليوم لها، ردّدت الدعاء الذي علمته لها أمّها منذ أن كانت طفلة صغيرة «اللهم نام عيني واهدي ليلتي» وجمعت يديها الصغيرتين وقرأت المعوذتين وسورة الإخلاص ثلاث مرات ومسحت جسدها وغطت في نوم عميق، هذا الفعل كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يقربك أذىً وتنام بهدوء، فما يزرعه الوالدان في نفوس أولادهم يبقى يلازمهم حتى الكبر، فيا أيها الآباء ويا أيتها الأمّهات ازرعوا بذور الخير والتربية الحسنة في قلوب أولادكم حتى تكونوا فرحين بهم في الغد، فلو طبقنا تعاليم ديننا الحنيف لازدهر المجتمع وتوطدت الأُسَرُ.

«صدقا أعترف لك أنّ الواقع صار مخيفا والبشر أسوأ، لكن تذكر أنّ هناك أُنَاسًا كغيمة مطر في حياتك، فلا تكن ضعيفا، فأحزانك ستختفي وألمك سيضمحل وقلبك سيشفى، فالله بجوارك ومع كلّ مصيبة ستأخذ الأجر على صبرك، فصدق قوله تعالى: « وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ» النحل ١٢٧، لا أشك أنّ هناك ظلمات قد مَرت بك لكن النّهار أتىَ وأشرقت ابتسامتك، كذلك هي الهموم ترحل ولا تبقى لأنّ الله قادر على أن يبدِّل حزنك بفرح وألمك بشفاء وضلالك بهداية، فلا تتذمر وتنطوي تحت سحب اليأس والكآبة، هَرْوِلْ بنفسك إلى الله وتأكد أنه سيجبرك».

مضت أيام ورهف قد اخْتلَتْ بغرفتها تخرج منها فقط لتأكل وتقضي حاجياتها، وطلبت من الجميع ألا يزعجوها، فأحيانا نحتاج لعزلة لنتعرف على أنفسنا ونستجمع قوانا، فالعزلة ليست تكبرا وإنما ثقافة نحتاج إليها. توالت الأيام وهي بين جدران غرفتها غارقة في بحر الكتب ومراجعة ما تحفظه من آيات قرآنية، وكانت قد أغلقت هاتفها كي لا يتصل بها أحد.

«أحيانا يضطر الإنسان ليعالج نفسه بنفسه ويبقى وحده بعيدا عن ضجيج الحياة ليعيد بناء ما هدمته تلك الأيام».

في حين آخر قد ثبتت عقوبة ذلك الشيطان لكنّه لم يعترف بمن حاك الخطة لأنّ كاميليا كانت قد وعدته إن أمسكوه بألا يعترف، وستبقى مخلصة في إرسال المال له إلى السجن، وكان مَآل من قدِمَ على الاغتصاب السجن لا محالة، وقد استغلت كاميليا عدم وجود رهف في الخارج كي تفجر القنبلة البشعة مفادها أنها لم تعد تأتي للدراسة لأنهّا وقعت في الفاحشة. أيام قلائل حتى صارت الألسنة تتحدث عن الخبر وانتقل الخبر بسرعة فالشغل الشاغل للبنات هو الثرثرة!

انزعج الكثير من هذا الخبر وحاولوا تفنيده، لأنهم على معرفة تامة بأخلاق رهف فلما سمعت مريم بالخبر اتصلت بها لكن وجدت هاتفها مغلقا مما أثار قلقها فحملت نفسها واتجهت إلى بيتهم.

– السلام عليكم يا خالتي زينب، أعتذر جئت دون أن أعلمكم لكنّي اتصلت برهف ولم تجب، خيرا ما الذي يحصل؟ الطلاب يتكلمون كلاما هزّ بدني، أين رهف؟

ردت زينب والحسرة بادية على وجهها: إنهّا منعزلة في غرفتها، لقد أصيبت بصدمة... وحكت القصة كلهّا على مسامعها، فاندهشت

مريم لما أصاب صديقتها وهي لا تعلم شيئا، فصعدت إلى الغرفة بعد أن استأذنت من زينب كي ترى رهف.

– حسن ما تفعلين، لربما تعود كما كانت، ابذلي قصار جهدك معها إني أتألم لرؤيتها على هذه الحالة.

– لا تقلقي يا خالتي، سيكون كلّ شيء بخير بإذن الله.

تحت لحاف خيباتها تمدّدت رهف على سريرها تنظر لسقف الغرفة، فإذا بالباب يطرق..

– رهف هذه أنا مريم، رجاء افتحي لي الباب.

اعتدلت رهف في جلستها وقالت: تفضلي.

دخلت مريم وارتمت في حضن صديقتها وبدأت رهف تدمع عيناها الجميلتان.

– انسي الأمر، لقد حدثتني أمّك بكل شيء وسمعت الخبر من الطالبات، لكن لا تحزني، كاميليا هي من فعلت كلّ هذه الفوضى وستلقى جزاء فعلتها، هي من حاك كلّ شيء وأطلقت هذه الإشاعات لكن لن يصدقوا ما تقوله فمظهرها يلخص كل شيء عنها.

– أتمنى أن يزول هذا الألم من قلبي.

– أنا معك وسنتجاوزه.

ردت رهف: شكرا حبيبتي وجودك أفرحني وخفف عنّي، هل تعلمين؟ بصراحة لم أتوقع أن تفعل ذلك ألهذه الدرجة هي سيئة؟! قد تسلط الشيطان على قلبها.

مريم: إنها شيطان بحد ذاته، لا تقلقي، الأصدقاء يعرفونك ولن

يصدّقوا ما قالته، سأتصرف أنا وأحكي للجميع قصتك، أنا معك يا أختي، سيكون كلّ شيء بخير، إنه ابتلاء لك، والله يحبك لذا ابتلاك، لا تنطوي على نفسك هكذا فليس لك أيّ ذنب، صرف الله عنك كل شرّ.

– آه يا مريم؛ تكدست بقلبي كلمات كثيرة فصورة ذاك الوحش لم أستطع أن أنساها.

– هانت، هانت يا رهف، اصبري ولك الأجر والعوض يوم القيامة، هذه مصيبة وعليك أن تصبري، ما حدث هو خير لك، لا فائدة من التفكير الزائد، نسأل الله الثبات عند وقوع الفتن، الحمد لله لم يحدث الأسوأ، ألست دوما من يواسيني؟ إذن فكوني صبورة كما عرفتك وتذكري أنه مهما علا صوت الظلم عليك فعدالة الله ستهب وتنصرك لا محالة، هيّا لتخرجي معي إلى الفناء.. فالشوارع تبدو لي حزينة لعدم رؤية الزهرة الجميلة، فلنغير الجوّ!

هزتّ رهف رأسها وغيّرت ثيابها واستأذنت من أمّها وعمّتها وقد امتلأ قلباهما فرحا لرؤية الابتسامة على وجهها.

احتضنت زينب مريم وقالت لها: لا أعلم كيف أشكرك، أنا ممتنة لك كثيرا يا ابنتي.

ردّت مريم: لا تشكريني يا خالتي فما أفعله هو شيء صغير مقابل ما فعلته ابنتك من أجلي، سنتجاوز هذه المحنة معا.

أتت خليدة بمبلغ من المال وأعطته لهما قائلة: هذه النقود هدية منّي لكما فاستمتعا بوقتكما.

– شكرا لك يا عمتي، نستأذنكما.

- رافقتكما السلامة...

بعد أن لامست أشعة الشمس رهف قالت: ما أجمل الطبيعة بهوائها وعصافيرها ونسائمها، فلنذهب إلى الحديقة لقد اشتقت إليها.

- ها قد سُر قلبي لرؤيتك تضحكين مرة أخرى، الحزن لا يليق بك، انظري إلى الأزهار إنها ترحب بك.. ارتفع صوت ضحكاتهما كثيرا.

«هناك مواقف لا تنساها الذاكرة، إعطاء أحد وردة على حين غفلة، كتابة رسالة لصديقة قديمة بخط اليد وإرسالها في البريد، حفظ كلمات شخص ما نحبه، إدخال السرور على قلب مهموم، ابتسامة لطيفة على وجه عابر، عناق يدوم للحظات... فانشر كلمات الودّ والحب على الجميع، هي مجانية لكنّها تجعل داخلك مملوءا بدعاء الخير، كلّ هذا كفيل بأن يجعل أحدهم مبتسما طوال يومه... هي كفيلة بأن تكون ذكرى ربما يسجلها أحدهم وينظر إليها كلما أصيب بالكآبة، كن دوما معطاء حتى لو كنت أشدّ النّاس هما وألما، وتأكد بأنّ ما تزرعه الآن ستحصده في المستقبل، فإياك أن يكون زرعك الشّر ،فلَوِّنْ زرعك بالحقول الخضراء التي تسر النّفس، وازرع ياسمينا وستشمّ رائحته في الغد».

ما صنعته رهف من أجل مريم في الماضي ها قد عاد إليها، وتبقى الجملة التي أرددها دوما «إنّ الناس للناس».

تمدّدت مريم ورهف على بساط العشب الأخضر بعد أن اختارتا مكانا مناسبا من الحديقة يخلو من النّاس وهي حديقة رائعة «حديقة التسلية» بالعاصمة وبدأت كلّ منهما تتذكر الذكريات التي جمعتهما، ورشت رهف من ينبوع الماء قطرات الماء على صديقتها ثمّ تفسحتا في أرجاء الحديقة الكبيرة ذات الهواء النّقي الذي اختلط بشتى روائح

الزهور من كل لون وشكل، فسبحان الخالق الذي خلق فصوّر فأبدع!

جلست الاثنتان في وسط الحديقة على كرسي تعلوه شجرة ذات أغصان كبيرة، والأطفال رفقة عائلاتهم يتجولون، وبينما مريم ورهف تتحدّثان عن الأحلام والطموحات والحياة فإذا بكاميليا تحدق بهما ثم توجهت نحوهما وقالت:

- أراك قد خرجت من وكرك أيتها الحمقاء....

حملقت رهف غير مصدقة ثم ردّت: لم أتوقع وجود الشّيطان في هذه الجنّة، تجول فتاة بائسة مثلك يجعل الأزهار تقشعّر وتشمئزّ لرؤية أشكال مثلك.

أمسكت مريم بيد كاميليا ونظرت إلى عينيها بكل غضب وقالت: اغربي من هنا، وإلّا لن يكون خيرا أبدا.

بينما مريم وكاميليا تتجادلان تظاهرت رهف أنها تجمع حقيبتها لكنّها كانت تشغل مسجل الهاتف خفية.

تتطاير الكلمات من كلا الطرفين بغضب وعنف فقاطعت حوارهما رهف:

- عزيزتي مريم، الشّجار ليس من صفاتنا، دعينا نذهب الآن، لن نلطخ أفواهنا وأيدينا بلمس ومجاراة الذين يفترون علينا الكذب.

ضحكت كاميليا باستهزاء على كلام رهف: انظري، لقد بقيت بمفردك، ولن يصاحبك أحد.

أضافت كاميليا والشّرر يتطاير من عينيها:

- سيأتون لطلب المساعدة منّي، لقد نجوت منّي هذه المرة وبسببك

قد دخل جون إلى السجن لكنّي أعدك بأنه سيخرج لينتقم منك أشدّ انتقام، وستكونين أضحوكة يا درويشية... وقهقهت بصوت عالٍ.

رهف: أنت وأمثالك لا يهمني ما تقولونه، الطيب يعرفه النّاس والسيئ سيبقى وحده في مزبلة مع الذباب، ثمّ إنك قدمت لي معروفا يا كاميليا، أنت أول من أشعل النّار وها قد أطفأتها الآن... وابتسمت رهف ابتسامة عريضة جعلت كاميليا تتآكل حقدا وغضبا ووجهها قد فسَّر ذلك لكن مريم قد بدت عليها علامات الحيرة فهي لم تفقه شيئا مما قالته صديقتها!

أجابت كاميليا باشمئزاز: سأشوه سمعتك، سينفر منك كل النّاس، سأبقى وراءك إلى أن يتركك زين.

فردّت رهف: مرحبا بحسنات لم أتعب عليها.. وغادرت المكان رفقة مريم وتنفست الصعداء!

في الطريق ظلت صامتة ومبتسمة بكلّ هدوء ثمّ قالت لصديقتها: مريم أدرك استغرابك مما قلته لكاميليا انظري ماذا فعلت.

مريم: ماذا؟

أخرجت رهف هاتفها من الحقيبة وقالت: لقد قمت بتسجيل صوتها وهذا دليل على ظلمها لي، سأريه لكلّ النّاس حتى يروا ماذا كانت تودّ أن تفعل بي.

بقيت مريم مندهشة وردّت: «حلال عليك، الحمد لله، يا لك من عبقرية» وضحكت كثيرا، «حققت انتصارا بحكمتك ورجاحة عقلك»، ثمّ اتجهت البنتان إلى المدرسة القرآنية وهناك وجدتا معظم البنات متجمعات هناك والبعض لما دخلت رهف نظرن إليها بنظرة

إهانة!

رهف: أعلم أنّ هناك من لا يردن رؤيتي، لكن لطفا تفضلن إلى هنا سأريكنَّ شيئا.

اجتمعت الفتيات حول رهف ومريم وأصابهنّ الفضول لما ستقوله، قالت إحداهنّ: تفضلي يا رهف ماذا تريدين؟

– المسجل من سيقول ولست أنا... بعد أن سمع الجميع الحوار الذي دار بين كاميليا ورهف أصبن بالخجل الشديد وطلبت كلّ واحدة الاعتذار منها وقبلت هي الأخرى عذرهنّ وقالت بصوت قوي:

– بما أنكنّ سمعتنّ ما الذي حدث فلتتكرمن بنشر هذا الخبر كما فعلتن سابقا معي، وأنصحكنّ لا تصدقنّ كلّ ما يقال.. ثم انصرفت هي وصديقتها من هناك بفرحة عارمة.

علم الجميع ما فعلته ذات الشعر الأشقر فابتعد الجميع عنها، فلم تجد حلا آخر سوى أنها حملت نفسها وانتقلت من ذاك المكان تاركة وراءها نظرة سوء لكلّ من لمحها فأصبحت منبوذة، وبهذا أغلقت رهف أفواه الجميع بذكاء منها وبراعة وبتوفيق من الله عز وجل.

فلا يجدر بنا إلا أن نقول أنّ الحقّ يظهر مهما طال الظلام، والله سبحانه ينصر عبده المؤمن ولو كان في بطن الأرض.

افترقت مريم ورهف وذهبت كلّ منهما إلى منزلها بعد يوم انتصار حقيقي، وفي أثناء حوار العائلة في المساء قصّت رهف عليهم ما حدث وسرت أمّها كثيرا وارتاح قلبها، وأعدّت خليدة كعكة لذيذة بمناسبة ذاك الخبر المفرح؛ وأخبر هيثم رهف أنه سيصطحبها معه إلى مدينة سطيف التي طالما حلمت أن تزورها.

- زين هل سمعت ماذا فعلت تلك التي كانت تقطن في حيّنا؟

- لا، ماذا حصل يا أريج !؟ ولماذا تتكلمين عن سيرتها في هذا الوقت، أكرهها، إنها بلاء!

- لقد خاطت مكيدة لبنت تدعى رهف، قيل أنها حفيدة عمر رحمه الله..

قاطع الأب كلامها: دعك يا بنيتي من القيل والقال، ولا تدخلي كلام الشوارع إلى البيت مرة أخرى.

- آسفة يا أبي.

سقط الكأس من يد زين فور سماعه ذلك الكلام الذي هزّ بدنه وقال: ماذا تقولين يا أريج، رهف!!

- نعم يا أخي، عند دوامي اليوم في المستشفى أتتني امرأة مريضة فأخبرتني بما هو منتشر.

كان الخبر كالصاعقة على زين فترك ما بيده وصعد إلى غرفته مباشرة دون أن يتفوه بكلمة، حمل هاتفه وأرسل رسالة ليعرف مدى صحة الخبر الذي سمعه للتو، لم يخرج من منزله منذ أيام لأنّ الزكام قد أصابه.

الأب: ما الذي حدث لأخيك؟ لماذا غضب هكذا؟

أريج: لا أعلم يا أبي.

الأب: فليكن خيرا، سأخلد للنوم... ليلة سعيدة يا بنيتي.

بعد ساعة كاملة من الانتظار المتلف للأعصاب رأى زين النقطة الخضراء فعلم بقدوم رهف وعندما كانت رهف تكتب ردا لرسالته فجأة انطفأ هاتفها، لأنهّا لم تشحنه... بدأ زين يقلب الأمور في رأسه

وقد ازداد قلقه على رهف، إنه في صراع وانتظار وما أصعب الانتظار! وما زاد قلقه أنه قد لاحظ قراءة الرسالة دون أن ترد عليها، فبقي ينتظر على أحرّ من الجمر إلى أن نام دون دراية منه.

أشرقت الشّمس واستيقظ بجسم متثاقل، استحم وتناول فطوره ثمّ فتح بريده ليجد رسالة هناك، كانت من رهف..

«صباح الخير، أعتذر لقد انطفأ هاتفي ليلة أمس، ما قالته أختك لك صحيح، لكن ظهرت الحقيقة والحمد لله»

فردّ على رسالتها: «حمدا لله على سلامتك، ليتني استطعت أن أكون معك وأساعدك».

ردت رهف: «لا عليك، مضى وانقضى كلّ شيء»، وانتهت المحادثة.

«الغيرة هي الحشرة التي تقتل الروح» جون درايدن.

الشّيطان عندما يتربع على قلب أحد فإنه يحرقه ولا ننسى أنّ الحسد والغيرة أول خطيئة ظهرت في العالم بأسره عندما قتل قابيل أخاه هابيل وهذه القصة قد تحدثت عنها كتب التاريخ كثيرا وكان ذلك بسبب فتاة سفكت دماء أخ صالح وطيّب.

«لو اكتفى واقتنع كلّ واحد منا بما يملكه لما قطعت الأرحام، ولما ظهرت الأمراض النّفسية».

أمسك بيدي يا صديقي

في هذه الفترة تألمت رهف كثيرا، لكن من حسن حظها أنها وجدت صديقة خفّفت من حملها الثقيل، في وقتنا الحالي كثيرا ما نسمع «لقد خانني صديقي»، ويشتكي معظمهم من خيبة الأصدقاء ويشتكون ويتذمرون من كلمة صديق، لكنّهم يجهلون ما يعنيه الصديق، الصديق هو أبو بكر رضي الله عنه حينما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم وآمن به، الصديق من يحبك لأنك أنت نفسك، يتقبلك بكلّ صفاتك ويحاول جاهدا أن يحسن من سلبياتك، يحبك من أجل الحب، إذا رآك تخطئ ينصحك وإن وجدك تغرق ينتشلك.. والمواقف تبيّن لك الصديق الحقيقي...

اخسر المال لكن إياك، إياك أن تخسر صديقا صالحا!

تستطيع أن تكون أغنى النّاس لو أنك تملك صديقا واحدا يغنيك عن تفاهات البشر، ولا تظننّ أنّ الصديق يكون مثاليا بل هو شخص مثلك له نقائص يصيب ويخطئ، ولكن الأجمل أن تمسك بيده عندما يغلط وتمسك بيديه وتكون له النّور الذي يخرجه من متاهته، فكما تقول الحكمة: «من يبحث عن صديق بلا عيب يبقى بلا صديق».

الصداقة تنبت معاني كثيرة أجملها إسعاد الخليل، فإنّ امتلاكك صديقا صالحا حسن الخلق طيب المعاشرة هو امتلاكك للعالم بأسره، ستكون حول جيش هائل من الأصدقاء لكن عندما تعصف بك رياح الحياة وعندما تكون سفينتك تصارع تلك الأمواج سيقف هناك من يريد رؤيتك تتحطم وتغرق وتغرق... بينما يأتي صديقك الحقّ في اللحظة المناسبة ليكون لك عون حماية ويغير الاتجاه لتصل إلى برّ الأمان

بأقل الأضرار، فالصديق من يدافع عنك في غيابك، ويقطع كل الطرق عندما يسمع صرخاتك ولا تهمّه أبدا تذكرة السفر، فلا تحرم صديقك من النصيحة، ما تحبه لنفسك أحبه له وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبه لنفسه».

في تلك الأيام كانت مريم الداعمة لأختها وحزنت لحزنها وفرحت لفرحتها، هذه هي الصداقة ليست بطول الأعوام لكنها بطول المواقف، فيمكن أن يكون لك صديق لعشر سنوات لكن لم يجمعكما موقف يثبت لك مدى صدقه لك!

فإن لم تنم يحاول أن يلهيك بشيء يضحكك كإرسال صورة أو نكتة تجعلك تنسى حزنك قليلا، الصداقة لا يمكن أن ينهيها الغياب أو تفاهات الحياة ولا سوء تفاهم، فإياك يا صديقي أن تخسر من يتحمل عنادك، نِعْمَ الخليل الذي يذكرك بالجنة، نِعْم الخليل الذي يذكرك دوما بالصلاة، نعم الصديق الذي يخاف عليك من المحرمات، وبئس الصديق اللئيم الذي يجرك معه إلى أسفل السافلين.

فأنت من تختار كيف سيكون مسارك في القطار إمّا أن تمشي في طريق مستقيمة وإمّا أن ينهار الطريق ويصيبه اعوجاج فينحرف إلى طريق أخرى، فإمّا أن تصعد للأعلى أو تسقط للأسفل فأحسن اختيارك!

شرعت رهف في كتابة بعض الكلمات في مذكرتها...

«إنّ الصداقة تعني لي الكثير من الحب لكنّه ليس بين حبيبين وإنما بين أختين جمعتهما مواقف وأحاسيس مختلفة، فالصديق الحقيقي لا يغيّره الزمن؛ لأنّ الصداقة عنوان الأخوة أولا وعنوان الودّ ثانيا، هي رونق الحياة وبهجتها، أمان، تآلف... والحياة دون صديق كأرض بور جافة... لي صديقة ودودة هي مريم، لا صلاة لي تخلو من اسمها وأعلم

أنها تفعل ذلك لي، لأنّ بيننا عهد حتى لو افترقنا لا ننسى بعضنا في الدعاء، مكانها بقلبي باقٍ والله إني أحبك وأسأل الله أن يديم صداقتنا»

وصدق الله تعالى حين قال: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» الزخرف ٦٧، ومعناه أنّ الأخلاء الذين كانوا في الدّنيا على كفر وضلال تنقلب بهم إلى عداوة باستثناء المتحابين المتقين فمحبتهم تدوم وتبقى متصلة لأنّ محبتهم كانت في الله وليس لغير الله فلا خوف ولا حزن سيصيبهم وثوابهم الجنّة التي تكون دار القرار لهم وتقرّ أعينهم.

يوم العطلة

تظلّ العطلة دوما فرصة ليطوّر الفرد نفسه وينميها للأفضل، كأن يقرأ كتبا في التنمية البشرية أو يتعلم أساسيات بعض اللغات، فكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم لغة قوم أمن شرهم».

فالإنسان دوما يطمح ويحلم للسفر للترويح عن نفسه واكتساب ثقافة جديدة في العيش، ذهب زياد مع أبيه إلى دبي واستمتع بوقته كثيرا لكنّه لم يقطع اتصاله بصديقه، بينما زين منهمك في عمله في المتجر، وينتظر بداية السنة الجامعية لكي يدرس اللغة الإنجليزية.

بينما رهف قد التحقت بمعهد لتعليم الحلويات وهي شغوفة بالأكل، ومريم اكتفت بتطوير مهارتها في الخياطة، أمّا ريماس الصغيرة قد كبرت قليلا وتمكنت من المشي لكن بخطوات مبعثرة، وكانت مشيتها كالبطريق وكثيرا ما يضحكون لرؤيتها تتعثر، ومحمد قد كان له الحظ الوافر من تعلمه للغة الفرنسية على يد أم هيثم وبقي جوزيف متابعا لعمله... وهكذا مضت الأيام.. الكل يفكر والكل يعمل إلى أن أقبل شهر سبتمبر وعاد الجميع لمقاعد الدراسة، سارت الأيام الأولى على نحو جيد، والمعروف أنّ الأسبوع الأول يكون أسبوع تعارف بين المعلم والمتعلم والمادة التي يتم تدريسها... مضت الأشهر وزين يعمل بجهد والتحق بالمعهد وصار محبا لمادة اللغة الإنجليزية ومن حين لآخر يلتقي بزياد في الجامعة، بينما مريم ورهف أصبحتا في السنة النهائية، وزياد يعطي بعض الدروس الخصوصية في الفلسفة لتلاميذ الباكالوريا.

تغير مفاجئ

تمضي الأيام وهناك من تلهيه ملذات الحياة بينما هناك أرواح وازنت بين معطيات الدنيا وبين أيام الآخرة... هي حياة عابرة وظلّ زائف، ابتسم وأسعد نفسك وتمتع بالحياة لأنك ستعيشها مرة واحدة فقط، لكن إياك أن تنسى غايتك من الوجود.

بينما الجميع يشاهدون التلفاز فإذا بهاتف رهف يرن فقامت لترد..

- السلام عليكم يا رهف كيف حالك يا ابنتي؟

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، الحمد لله بخير وأنت؟

- نحمد الله ونشكره، أعتذر عن اتصالي في هذا الوقت.

- عساه خيرا يا أستاذ؟

- خيرا، خيرا، هناك حفل تكريمي لعمال النّظافة وأريد منك أن تفتتحي الحفل بترتيل آيات من القرآن، فقد عُينت مشرفا على هذا الحفل وقد وجدتك الشخص المناسب لذلك.

فرحت رهف ثم أجابت بابتسامة: هذا شرف لي، أشكرك يا أستاذي، ممتنة لك كثيرا.

- مرّي غدا على مكتبي لأشرح لك أكثر.

- حسنا يا أستاذ، تصبح على خير.

وأغلقت رهف الخط وقد جعلها هذا الخبر تتطاير فرحا، فذهبت لتخبر أمها..

- أمّاه يا أمّاه، اتصل بي الأستاذ رضوان وقد عيّنني لأقدّم افتتاحية

حفل تكريمي بتجويد القرآن.

– فعلا إنه أستاذ طيّب، وفقك الله عزيزتي.

ولمّا سمع هيثم ذلك فرح كثيرا وقال:

– «سيماهم في وجوههم»، كذلك هو أستاذك لم أرَ ألطف منه.

فقالت خليدة: حقّا إنه رجل نصوح فليحفظه الله.

واستأذنت رهف منهم كي تنام فغدا ينتظرها يوم شيق.

تسللت أشعة الشمس من النّافذة لتعلن عن يوم جديد، عن أمل وحكم وربما تغير شامل!

تناولت رهف فطورها مع أخيها وقد أوصلهم هيثم بسيارته إلى مقاعد الدراسة، وصلت رهف وأعلنت الخبر على مريم لتفرح معها ثمّ ذهبت إلى مكتب أستاذها بينما مريم بقيت تنتظرها في الخارج، فأرسلت خبرا إلى بريد زين كي يأتي ويحضر دون أن تعلم رهف بذلك.

«في الفترة المسائية سيقام حفل في كليتنا تعال لتشاهد الريحانة».

بدوره زين كان يتصفح حسابه ليجد رسالة من مريم فأخذ معه زياد وراحا يسألا عن فحوى هذا الحفل ليجدا الإعلان مكتوبا بلوحة الإعلانات في الطابق السفلي، دقت رهف الباب:

– حياك الله يا أستاذ.

– أهلا بك كنت أنتظرك، أرى وجهك مبتهجا اليوم.

– أنا مسرورة ومتحمسة لذلك، شكرا لك.

فتح رضوان درج مكتبه واستخرج كتبا وأعطاها لها قائلا: هذه

هدية بسيطة منّي لك، لقد اشتريت هذه الكتب أثناء رحلتي إلى مصر، ستعجبك وتفيدك، اقرئي هذا الكتاب فهو للرافعي سيزودك بتراكيب عجيبة.

فوجئت رهف وبقيت تحدّق بالكتب التي طالما تمنت أن تحصل عليها وقالت: حقا لا أعلم كيف أشكرك، ليت كل الأساتذة مثلك إيجابيون ومبتسمون.

– كنت دوما ما أقول في مجلس الإدارة أنّ الأستاذ هو الشعلة الرئيسية في الدرس، فعندما يحفّز وينصح ويستقبل حتما ستكون النتائج مبهرة، لكن جلّ المدرسين لا يفعلون ذلك... ربّما تتحسن الأوضاع يوما ما.

– إن شاء الله يا أستاذ، لا أعلم كيف أرد لك الجميل.

ابتسم رضوان وقال: حينما ترتدين مئزرا أبيض اللون، وأراك تعلمين الأطفال بكلّ حب، تكونين قد رددتِ لي الجميل، أنت طموحة وأرى في عينيك طاقة خياليّة، ستصلين إلى منصب راقٍ ويناسبك، فلا تضعفي ومن حطامك اصنعي القوة.

– إن شاء الله... دوما كلماتك تكون كترياق لي... ثم قالت: ماذا أرتل؟ أي آيات؟

– لك حرية الاختيار، هيّا فلنذهب الآن للمحاضرة سنتناول موضوعا في الغزل.. وضحكت رهف وتوجهت هي وصديقتها إلى الدرس، وجلستا بجانب بعضيهما كما في كل مرة وقد كانت محاضرة شيّقة ومفيدة خاصة لمحبي الشّعر وانتهى الدرس بسرعة.

المكان مزدحم، دخل زياد وزين المدرج لكنّهما لم يتمكنا من رؤية رهف أو مريم، ثمّ جلس زياد في المقاعد الأخيرة بينما زين راح يبحث

عن مريم لكنّه لم يجدها فقعد أمام صديقه.

الساعة الثانية زوالا تجمع الطلبة، حشد غفير، تقدم الأستاذ رضوان وألقى التحية على الحضور ثمّ قدّم رهف، شرعت رهف في ترتيل آيات من الذّكر الحكيم وقد أهداها الله مزمارا من مزامير داوود، وقرأت من سورة الزمر «أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ..» الزمر ٢٢. صوت شجي وخشوع تام لكل الموجودين، الكلّ يحدَق بتلك الفتاة التي أذهلتهم برقة صوتها، الكل يستمع، كثيرا ما نبكي إذا سرق أحدهم شيئا منّا، لكنّنا لا نبكي على الحال التي نحن عليها، لا نبكي لأنّ الشيطان سرق قلوبنا وأبعدنا عن الذي رفع السماوات والأرض بغير عمد، بكت العيون واقشعرت الجلود، وتحركت القلوب... أنهت رهف القراءة ورفعت رأسها لتجد كما هائلا من العيون ينظرون إليها بعد أن صفّقوا على حسن أدائها، وأدلى مقدم الحفل «بارك الله فيك»، وجلست في مقعدها وقد احمرت وجنتاها خجلا، في زاوية أخرى يجلس شخص تجمد مكانه، اقشعر بدنه وسالت دمعاته التي كان يخفيها عن النّاس، تحرك قلبه وكأنّ شخصا ما قد صفعه وأعاده لرشده، رقّ قلبه وأحسّ بشيء ما في نفسه، إنّه زين!

رهف ترتل!! انتبه زياد له والذي بقي مركزا على رهف واندهش هو الآخر فأول مرة يستمعان لصوت بنت كهذه، تمتم زين في نفسه: يا إلهي هذه رهف لست مصدقا!

تمتع بالحفل كل الحضور، أقيمت مسابقات وتكريمات لعمال النظافة وانتهى الحفل بكلمة شكر قدمها مقدم الحفل «علينا أن نلتفت إلى تلك الفئة ونهتم بها ونبهج قلوبها». انصرف الجميع وزين قد اتجه نحو

الباب الخلفي، بقي هناك جالسا لوحده تحت ظلّ شجرة، غسل وجهه بالماء بعد أن ابتلت عيناه السوداويتان بالدموع وتوجه إلى المسجد الذي هجره منذ فترة طويلة، فصوت داخله يقول له ذلك، دخل المسجد بقلب منكسر وصلّى ركعتين ورفع يديه إلى السماء ضعيفا يتضرع إلى ربه بكل خشوع وقلب صادق «أتيتك يا رب فاقبلني عندك فأنت الذي تهدي، أعنّي يا رب أن أتوب توبة نصوحا... ثبّت قلبي على طاعتك».

وأجمل عودة أن يعود المرء إلى ربّه ،فالله يسوق الأقدار إليك من حيث لا تعلم كي تتغير، فالإنسان الضال يستطيع أن يغيّر نفسه للأفضل، فالله دوما يرسل لك إشارات وأناس لتكون لك بداية جديدة، من طبيعتنا أن نخطئ فيذمّنا النّاس وينفرون منّا فنحس بالوحدة وتتراكم الذنوب، النّاس لا يمكنهم أن يستقبلوك دوما، لكنّ الله بابه واسع ومفتوح في كلّ حين؛ عندما يلجأ الإنسان إلى خالقه يشفيه من كلّ سقم ويغفر زلاته ويقبل توبته، فلا تنس يا إنسان أن الخالق يرى تلك الصراعات التي بين نفسك وبين شهوات الدنيا لكنّه ينتظرك كلّ لحظة، فعد إليه كل مرة لأنك لن تجد أحنّ من الله عليك وتذكر أنّ لك ربا قادرا على كل شيء عظيم غفور، رؤوف يسمعك ويراك ويسترك ويعفو عنك.

وبصوت شجي طاهر قد قلبت الموازين وعاد زين إلى ربهّ بقلب نقي.. خرج زين من المسجد مبتسما واتجه إلى موقف الحافلات وهناك وجد زياد ومريم ورهف يتحاورون عن الدراسة فلمحه زياد قادما نحوهم فألقى التحية عليهم ثمّ سأله:

- أين كنت يا صاح؟ لقد بحثت عنك ولم أجدك.

- سنتحدث لاحقا، ثمّ نظر إلى رهف وقال: رهف أمهليني من

وقتك دقائق فقط.

- أهلا رهف، كيف حالك؟

حدّقت في وجهه قالت: ما بهما عيناك حمراوان هكذا؟ هل أنت مريض؟!

- لقد حضرت الحفل اليوم... أخبرتني مريم بذلك.

تعجبت رهف من قوله ونظرت إلى مريم، وجدتها مبتسمة فعلمت أنها أخبرته.

- لكنّي لم أرك!؟

- كنت جالسا في الخلف... قالها ونبرة صوته متغيرة، الحسرة تملأ قلبه بعد أن ضيّع أياما دون قربه من ربه ثمّ قال:

- أنا ممتن لك ولمريم، بسماعي لصوتك وأنت ترتلين أحسست بشيء ما يسري في روحي، أذبت قلبي بعد أن كان صخرا، لقد أحييت عظامي من جديد، شعرت بشقائق صدري تنكسر من الجليد المحيط بها، وكأني كنت أعيش في كهف مظلم كأصحاب الكهف لكنّك كنت ضوء الشمس الذي أضاء مغاراته.

صمتت رهف للحظة ونظرت إليه فرأت دموعا تملأ عينيه وقالت: الحمد لله، ما الإنسان إلا سبب وإرادة الله تفوقنا، فإن قال للشيء كن حتما سيكون.

ركب الجميع الحافلة، ثم سردت رهف ما حدث لمريم؛ وزين بقي يراقب الطريق صامتا وقد حاول زياد كسر ذاك الصمت فتنحنح بصوته قائلا: زين، هل أنت بخير؟ أنا أستمع إليك.

وضع زين رأسه على كتف زياد وراح يقول: لطالما كنت تنصحني بالصلاة دوما لكنّي كنت أختلق الأعذار في كلّ مرة، كنت في مستنقع من الغفلة تائها تماما، لقد ضاع منّي الكثير، لن أترك صلاتي بعد الآن أعدك.

تعجب زياد وقال: كيف حدث هذا؟

زين: صوت رهف! كان كالنور على روحي.

ردّ زياد معلقا والفرح يغمر قلبه: لا عليك، لكلّ شيء حكمة من عند الله، الحمد لله سررت بهذا كثيرا عاد إليك قلبك بروح جديدة، فلا تفكر كثيرا بالأمس لن يتغيّر شيء لأنه فات وانقضى، لكنّك تستطيع إصلاح الحاضر... فكّر الآن في الطريق الجديدة التي ستسلكها هذه المرة، ستواجه أشواكا وحفرا لكن بمدى قوة إيمانك ستتغلب على هوى نفسك، لقد سعدت كثيرا اليوم على أن سخّر لك الله رهف لتكون سببا في انتشالك من تلك الرقعة، وتذكر بأني معك دوما... وراح يرسل إليه بعبارات تريح قلبه.

مضت الدقائق بسرعة وغادر كل إلى منزله بفرحة؛ دخل زين منزله فوجد أباه يشاهد التلفاز ذاك الأب الذي لا يكثر الكلام ودوما هادئ، وأريج في المطبخ فألقى عليهم التحية..

- السلام عليكم يا أهل البيت.

- وعليكم السلام، كنّا نتحدّث عنك الآن، يبدو أنك ستعيش عمرا طويلا... وضحكت أخته.

- سلمتم، أنا متعب ولن أشارككم المائدة، بالصحة والهناء، سأصلي وأنام.

بقيت أريج مسمرة في مكانها وهمست في أذن أبيها: يصلي! لا شك أنه يهلوس!

سمعها زين فردّ عليها قائلا: أنا لا أهلوس، لقد صليت اليوم...

وبينما زين يريد أن يشرح ذلك إذا بمذيعة التلفاز تقول بصوت عالٍ: مبادرة حسنة من طرف رئيس الجامعة وأعضائها، نحيي الشباب على تلك المبادرات وضوء الصحفيين قد سلط على رهف التي تميّزت وأبدعت اليوم في أول ظهور لها على الكاميرا.

ابتسم زين وقال: ها قد رأيتم الخبر.

أريج: أداؤها رائع.

الأب: ما شاء الله، فليحفظها الله.

– أعتذر يا أبي عن كل تصرفاتي، الحمد لله لقد مَنَّ الله علي وأفقت من غفلتي.

عانقت أريج أخاها وفاضت الدموع من عينيها وفرح أبوه بذلك.

– تصبحون على خير.

صلاتي حياتي

أجمل ما في الحياة ولد يطيع أباه... الولد الصالح نعمة، والصلاة أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، ومن أقام صلاته أقام دينه، وبالصلاة تحلو الحياة ويرتفع المقام ويبتعد المرء عن النيران، فالرسول صلى الله عليه وسلم قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، فتذكر أنك ستسأل عن وقتك وعبادتك وكل صغيرة وكبيرة.

الصلاة عماد الدين وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «رأس الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»، وكما نعلم أنّ الصلاة لها منزلة عظيمة في ديننا الحنيف فهي العبادة التي فرضها الله في السماء، ولا شك أنّ للصلاة حكمة فهي تعالج هواجس النفس البشرية التي تكون دوما بين حرب الهوى، وبالصلاة تطهر نفسك من موبقات الشر والله عز وجل قال في كتابه الحكيم: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» العنكبوت ٤٥.

أردت القول: الكثيرون يعلمون كلّ هذا لكنهم يرضخون لأهوائهم، لكن وجب على المرء دوما التحاور مع نفسه، فالتقصير ليس عذرا... فعليك أن تتصالح مع نفسك وتبدأ من جديد مقبلا بكل صدق.

بدأت حياة زين تتورد وتغيرت من جذورها...

في تلك الليلة شاهد أهل رهف أداءها على شاشة التلفاز وقد أثنى هيثم على ذلك ومدحها فلا يجب أن نكبت شعورنا اتجاه من نحبهم، فلا تدري كيف سيكون تأثير كلام طيب على مسامعهم.

صعدت رهف إلى غرفتها التي تحتويها بكل أسرارها وفتحت بريدها

لتخط بعض الذكريات الجميلة التي حدثت اليوم وأجملها على الإطلاق كانت «ذكرى زين» بعد أن أدت صلاتها وراحت تخط كلمات بأناملها، الدموع تسيل والذنب كبير والصبر قليل والعمر قصير والندم كثير، يقبل شهر ويمضي عام وأنت ما زلت غافلا سائر الأيام.

ويظلّ عفو الله جميلا، بين حين وآخر نضل الطريق ونعود إلى الله كالغريق الذي رمته الأمواج إلى الشاطئ، في هذا العالم كثر الظلم وازداد الفجور، لقد هجرت المساجد ونسي القرآن، أضعنا الصلوات وقطعنا الأرحام، يهيئ الله لك الأسباب ويرسل إليك الصديق والرفيق، أتظنه لا يراك؟ إنه يراك ويسمعك!

يناديك متى تستفيق! ألم يحن وقت التزامك وغسل قلبك من الخطايا؟ توجه يا ابن آدم بالتوبة وطلب الغفران من خالق الأكوان السميع المنّان، رتل قرآنك وستهدأ روحك ويشفى قلبك، فالله لطيف بك يفرج الكربات ويزيل الظلمات ومن الصخور ينبت الياسمين، فرحمته وسعت كلّ شيء يلين ذاك القلب برحمته، كانت لي لحظة رائعة حينما أفصحت عما بقلبك وتألمت برؤية عينيك بالدموع أتمنى لك أياما مليئة بالبسمة.

بعد أن قرأ زين تلك الكلمات التي لامست قلبه ردّ على رسالتها قائلا: أنت بسمتي!

لم تقل رهف شيئا، وأغلقت هاتفها ونامت.

بقي زين ممددا على سريره وأفكار كثيرة تراوده، الفرح والحسرة يملآن قلبه بفضل معاملة حسنة من فتاة كانت أسطورة بكيانها.

قبل الفجر بدقائق استيقظ زين وقلبه يتراقص من شدّة الفرح وتذكر تلك السنين التي انقضت وهو نائم عن أعظم صلاة تاركا لذّة حلوة

تفوته، أدّى صلاته ودعا الله أن يوفقه لما يحبه ويرضاه.

يوم جديد ها قد أتى، لم تستيقظ رهف.. أنين وحمى وزكام قد أصابها ممدة على سريرها وأمّها تجلب لها الضمادات لتضعها على رأسها كي تنخفض حرارتها، وعند الظهيرة أخذتها عند الطبّيب برفقة هيثم بينما محمد قد أوصلته أمّ هيثم إلى المدرسة.

دخلت رهف رفقة أمّها إلى العيادة وقامت الطبيبة بفحصها وقالت: لقد أكلت شيئا باردا هناك التهاب في اللوّزتين، وصفت لك دواء فاشربيه وبإذن الله ستتحسنين... ثم انصرفوا إلى البيت.

في الجامعة انتظرت مريم صديقتها فلم تأت، وقد نسيت هاتفها في البيت فلم تتمكن من الاتصال بها، وبعد الدوام ذهبت إلى بيتها كي تطمئن على حالها وقد استقبلتها أم هيثم وأخبرتها بأنها مريضة وتبادلتا أطراف الحديث إلى أن وصلت رهف برفقة أمّها.

- زال البأس يا رهف، شفاك الله وعافاك، قلقت عليك فأتيت.

- شكرا لك يا مريم أتعبت نفسك، تعالي إلى غرفتي لنتحدث قليلا فهذا الدواء فعّال سأتحسن.

في مخرج الجامعة انتظر زين خروج رهف لكن لم يجدها ودخل إلى كليتها ليسأل مريم عنها فلم يجدها هي الأخرى، توتر وقلق لعلّ مكروها قد أصابها، توجه إلى المكتبة لعله يجدهما هناك، ثمّ لمح من بعيد بنات دوما ما يجلسن مع رهف ومريم فسألهن قائلا:

- من فضلك، هل تعرفن أين هي مريم؟

- لا، لقد انصرفت لوحدها منذ قليل.

- وصديقتها التي كانت معها، ألم تأت للدراسة اليوم؟

– لا، لم نرها اليوم كانت مريم بمفردها

– حسنا، شكرا لكن.

أصابت الحيرة زين فهو يعلم أنهّما دوما مع بعض، واصل البحث لكن دون جدوى ثمّ انصرف إلى منزله.

في المساء عاد محمد من المدرسة ليجد أخته نائمة، فراح كي يوقظها ويلعب معها ويخفّف عنها كما كانت تفعل معه دائما.... طبع قبلة على خدها فأحست به واحتضنته.

– ما بها الغزالة نائمة، هيّا الطعام جاهز انهضي كي تتناولي الدواء... ثم وضع يديه الصغيرتين على رأسها وشرع في قراءة بعض آيات من القرآن كما كانت تفعل له ودعا الله أن يشفيها.

تبّسمت رهف ثم قالت: آه منك يا مشاغب، صرت إماما... لن يطول هذا، لا تنس دروسك.

فضحك محمد وقال: سأستغل هذه الفرصة للعب بألعاب الأنترنت... وراح يعانقها وتعالت أصوات ضحكاتهما.

«حدّثوني عن الأطفال أحدثكم عن البراءة، تلك اللؤلؤة البراقة الرقراقة تجدها في كل طفل، فلهم أحاسيس ونظرات مرهفة... البراءة حياة، صفاء ونقاء، لا تعرف الكره ولا الظلم، نكبر ونكبر ويعترينا شوق كشوق أن نكون أطفالا كما كنّا، آه لو يعود بنا الزمن للوراء لأيام كنّا فيها صفحات بيضاء بأحلام وردية، ليتنا نعود إلى هناك دون هموم وآلام، كنّا مفعمين بالسعادة تسعدنا قطعة شوكولاتة وتؤلمنا رؤية فقير ينام على الأرض، حقا الطفولة أيام بساطة وخفة دم، فذاك الأمان الذي كنا نشعر به له صوت خاص، فأجمل ما في الطفولة البراءة! أيام كنّا

فيها أشجارا مثمرة وعصافير مغردة وزهورا يانعة، أشتاق إلى تلك الابتسامات الصادقة النابعة من القلب، إلى أيام لن تتكرر حقا، فتراتيل القرآن التي كانت تعلمها لي جدتي ما زلت أحفظها وأشم رائحة الخبز الذي كانت تخبزه في كل أرجاء البيت، أمّا عن أناشيد المدرسة فهي أكثر متعة، بساطة الإنسانية مختصرة في الطفولة البريئة، فالبراءة قولها لين وفعلها طيب.. عفوية كثيرا، فكلّ ما أراه في البراءة أنها أينما حطت أزهرت وأنبتت بساتين ملونة من الأقحوان والياسمين».

بعد أن تناولت رهف الطعام مع أهلها جلست معهم وتحدثوا عن مختلف المواضيع وقضت رهف اليومين في المنزل دون أن تتصفح بريدها.

في تلك الأمسية أرسل زين رسالة إلى مريم بالرغم من محاولاته المتكررة مع رهف إلا أنها لم تجب فأخبرته أنها مريضة وتحسنت فارتاح قلبه.

عادت رهف بعد أيام إلى دراستها فموعد الامتحانات قد اقترب وعلى كل واحد أن يثابر كي ينجح فالحياة دون علم مقبرة، فبالعلم ننير دروبنا... فما أعظم أن يكون المرء متعلما ولا يبخل بعلمه على أحد!

في تلك الأثناء صار لقاء رهف مع أستاذها يتكرر كل يوم في مناقشة مذكرتها وتوجيهها فهو موسوعة علمية تريد أن تنهل منه ما تستطيع، فكثير من الطلاب يهتمون بتحصيل النقطة فقط دون النظر إلى تكوين أنفسهم وحب المادة له تأثير كبير، فهل الهدف يكمن في تحصيل النقطة دون تجميع أكبر عدد من المعلومات؟

الغيرة

من صفات البنات الغيرة من بعضهن، لما رأت سلمى رهف وجديتها وحسن إلقائها أصيبت بالغيرة ومن التعامل الحسن لأستاذها لها ولأن الشخص الناجح دوما ما يطلق النّاس عليه الرصاص دون رحمة... فعندما ننظر إلى البعض نميّز جيّدا بين مَنْ له حلم وهدف وبين إنسان يمشي في الفراغ دون طموح وبالخصوص في الجامعة، هناك فئات شغلها الشاغل التسوق والتنزه والثرثرة وينظرون إلى الشخص المجدّ على أنه متوحد لكنهم جاهلون حقا؛ فهل فعلا المجتهد متوحد ومريض نفسيّ؟ ما هذه العقول الملوثة!

اجتمعت سلمى بالفتيات اللواتي تعرفهن لتوجه لكمة لرهف، تناقلت الألسن الخبر الكاذب في وقت قياسيّ فمن المعروف أنّ النّساء ماهرات في نشر الأخبار، مضت الأيام والكلّ ينظر إلى رهف ومريم بنظرة احتقار، تعجبت من ذلك لكنها لم تبد الأمر أيّ اهتمام.

جالس على الكرسيّ ويحتسي فنجان القهوة، يتمتع بجمال ذاك اليوم اللطيف فإذا بطالبين يمران من هناك ويتمتمان حول رهف... بقي يحدّق للحظة وسكب القهوة على الأرض وحمل كتابه وتوجه مباشرة إلى رهف ونار الغضب قد أحرقته، ينظر من هنا وهناك وسط جمع غفير من الطلبة إلى أن وقعت عيناه عليها من بعيد، قامة طويلة وحجاب بنفسجي قد جعلها تبدو أجمل زهرة بنفسج في أعلى الجبل وكلّ العيون تنظر إليها، وجدها برفقة أستاذها تبدو وكأنها تستفسر عن أمر ما فبقي منتظرا متمتما:

– أيتها الحمقاء ماذا تفعلين هناك... سيكسر قلبي!

الغيرة تجعلك تتصرف بتهور دون أن تعي ذلك، لكنّه لم يستطع أن يمكث هناك طويلا فتوجه إليهما وقاطعهما..

- السلام عليكم يا أستاذ.

- وعليكم السلام، هل تحتاج شيئا أيها الطالب؟

- حضرة الأستاذ... أنا محتاج لهذه الطالبة في أمر ضروري هل تسمح لها بالانصراف؟ صديقتها تحتاجها في أمر طارئ.

بقيت رهف متعجبة من قول زين فردّ عليه:

- حسنا... نلتقي مرة أخرى يا رهف، رافقتك السلامة.

بعد أن انصرف الأستاذ لاحظ كلّ الطلبة ينظرون إليه بتعجب وبدأ عداد الألسنة التي تخيط القصّة كما يحلو لها.

تساءلت رهف: ما الذي حدث يا زين؟ خيرا!

أجاب زين بكل غضب: لا تقولي أيّ كلمة، واخرجي الآن إلى الحديقة سأجدك هناك هيّا!

تعجبت رهف من فعل زين فأول مرة يعاملها هكذا، وذهبت إلى الخارج وجلست على الكرسيّ.

- هل صحيح ما سمعته اليوم؟

- عن ماذا تتكلم؟ أين هي مريم أفزعتني!

- مريم بخير ولا أعلم أين هي، كانت كذبة اخترعتها لآخذك من هناك.. سمعت أنه سيتقدم لخطبتك وأنّه عاشق وولهان بك!

صرخت رهف في وجهه: أحمق، كيف تتجرأ على التكلم بهذه

الوقاحة؟

– وتدافعين عنه كذلك.

– ماذا تظنّ نفسك يا هذا؟ اغرب عن وجهي، الذي تسمعه هو إشاعات لا أساس لها من الصحة، وذاك الرجل بمقام أبي وهو يمدّ لي يد العون، يا لكم من حمقى متخلفون، شغلكم الشّاغل مراقبة الغير، أفّ منك، ما شأنك إن كنت أحبه أو ألتقي معه؟ من تكون لتحاسبني؟!

كانت تلك الجمل كرصاص على قلبه المرهف فصفعها بيده.

ارتجفت عينا رهف، وسالت دمعة على خدها، وقالت: يا أسفي! إنك إمّعة... وانصرفت مهرولة والدموع تذرف من عينيها.

سقط زين أرضا ولم يعلم كيف فعل ذلك، أحيانا نصاب بالخذلان من أقرب النّاس.

لم تتوقع رهف ذلك من زين.. حاول اللحاق بها لكنّه فشل وعضّ أصابعه ندما على فعلته.

الغيرة نار قد تحط على زهرة فتجعلها ذابلة، قد تحطمك الغيرة! نعم زين يحب رهف وتعلق بها كتعلق العصفور بأمّه؛ وصارت جزءا من حياته لكنّه يخفي حبه.. لم يهدأ قلبه ففكر في تصليح ما فعله، دخل إلى الكلية ليجد مريم هناك فهي الوحيدة التي ستساعده، نادى عليها..

– مريم، مريم...

بعد أن سمعت مريم الصوت التفتت لتجده زين..

– أهلا، كيف حالك؟

– لست بخير، لقد أخطأت في حقّ رهف ولا أعلم كيف رفعت يدي وصفعتها لكنّي تحركت دون تفكير بغضب وحرقة لما سمعته!

اندهشت مريم وقالت: بربك هل صدّقت ما قيل عنها؟

– وسوس لي الشيطان وعميت عيناي.. أرجوك ساعديني، والله إني أحبها ولا أتحمل خسارتها، لست أدري كيف فعلت ذلك، نار الندم تأكلني.

– كيف لا تدري؟ لقد ظلمتها أنت كذلك، أتمنى أن لا تنطفئ تلك الشّمعة... صمتت مريم قليلا ولاحظت النّدم في عينيه..

– حسنا، لا تحدّثها أبدا سأمر إلى بيتها لأفعل اللازم وسأخبرك بما يحدث.

– شكرا لك يا مريم... قتلته بنظرة باردة وانصرفت.

سحب الكآبة قد سقطت على رهف، مستاءة كثيرا من الذي حدث، تذكرت قصة كاميليا وما كادت أن تفعله بها، وها هي تستقبل خيبة أخرى من شخص قريب جدّا، من ذاك الحبيب!

وصلت إلى البيت دون أن تتحدث مع أحد فقد اعتاد أهلها على الصمت المفاجئ لها بين الفينة والأخرى لكنّ الكثير من الصمت لا يعني الهدوء، بل الألم!

رمت بجسدها على السرير وشرعت بالبكاء لتروح عن نفسها، كيف لذاك القلب الذي لان أن يفعل ذلك؟! كيف لليد الحنون أن تصبح عنيفة؟! أصيبت بنوبة بكاء حادة.. رفعت رأسها إلى المكتب لتجد صورة أبيها، فتزاحمت كل المواجع دفعة واحدة.

– آه يا أبي.. بحّ صوتي وذبلت عيناي، خذلني دمعي وكلّ الخيبات

تتساقط على قلبي، ليتك معي لتخفّف عنّي، ضاقت بي الحياة، لو كنت هنا لأسرعت لضمّك لكن غصّة ألم فقدانك ما زالت مشتعلة بداخلي، حزينة عيناي وملتفة بالسّواد، بكيت ألما حتى انتهت دموعي ولم ينتهِ هذا الشعور! الحياة ترمي بسهامها عليَّ بكلّ قسوة لكن ماذا عساني أن أفعل؟ تنهدت وقالت: «الله معي»، بعد حرب من بكاء وأفكار وصراع مع نفسها غسلت وجهها وخرجت إلى حديقة المنزل لتجد ريماس، لعبت معها حتى نسيت همّها ثمّ سألت عمّتها:

– عمّتي أريد أن أسألك سؤالا؟

– تفضلي يا رهف.

– ماذا لو يتهمُّك أحد قريب منك بتهمة وأنت بريئة منها كيف ستكون ردّة فعلك؟

– لا أنكر يا عزيزتي، أتألم لكن أمضي.. فلو كان يعرفني جيّدا لما آلمني.

– كان جواب خليدة كافيا لرهف.

– حسنا، آه، لا بأس.

– ما مناسبة هذا الكلام؟

– مجرد سؤال يا عمّتي، سأشاهد التلفاز... وتهربت من الجواب.

لكن خليدة أدركت أنّ هناك ما يزعج ابنة أخيها فلم تشأ أن تضغط عليها... حضن أمّ دافئ يشفي كل الجروح!

بينما رهف تشاهد الأخبار إذا بأمّها تجلب لها كوب عصير وتحتضنها، فهي تعلم أنها تتألم، لم تتحمل رهف وشرعت في البكاء... فقلقت

زينب وتساءلت:

- ماذا بك؟ لماذا تبكين هكذا؟

- أمّي لقد تعبت من مراقبة النّاس لي... الأستاذ بمقام أبي وهم يتحدّثون كلاما يجرحني.

ردّت زينب وهي تربت على كتفها: لا تشغلي نفسك بآراء النّاس، فهم لا ولن يكفوا عن الانتقاد والثرثرة، أنت تعرفين نفسك جيّدا فكوني واثقة من ذلك؛ رهف يا ابنتي دعيهم لخالقهم فلا يتحدث عنك بسوء إلا من أراد أن يكون مثلك وفشل، الكلام بالمجان دعيهم ينبحون حتى يتعبوا، يكفي أنّ لك ضميرا حيّا، يكفي أنّ نيّتك التعلم فقط، أنا أثق بك والله سيمكر بهم، رحبي بحسنات لم تتعبي من أجلها وتذكري قول الله عز وجل: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﷻ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ» النمل ٧٩.

كانت تلك الكلمات شفاء لرهف واستعادت ثباتها بعد سماعها لذاك الكلام، وأي كلام؟ كلام الأمّ الحنون... رجعت رهف بكامل قواها لترياق أمّها.

محمد: هيّا لنراجع الدروس يا رهف.

- حسنا سآتي..

وبينما هي في غرفة محمد يتناقشان حول قواعد اللغة العربيّة رنّ هاتفها فطلبت من محمد أن يفكر في الجواب حتى تأتي..

- أهلا مريم كيف حالك؟

- بخير يا عزيزتي وأنت؟

– كنت سآتي إلى البيت لنتحدّث لكن ألما في بطني أعاقني.

– خيرا هل أنت مريضة؟

– تسمّم غذائي فقط، أنا بخير.

– الحمد لله على سلامتك.

– رهف تحدّث معي زين اليوم حول ما حصل، أريدك أن تسمعيني ولا تقاطعيني.

– لا تذكري اسمه مرة أخرى، لأني أكرهه.

– أعلم أنت غاضبة منه كثيرا ولو كنت مكانك لكنت على نفس الحال، لكنه تصرف بغباء وغضبه سيطر عليه، إنه يحبّك صدقيني، والغيرة أعمت عقله فلا تحزني رجاء... أضيفي على ذلك أنّ هناك من يغار منك لذا يتحدّث بسوء هكذا... أدرك جيّدا صعوبة الأمر عليك، لكن أنت من كنت تقولين لي دوما لا يهمك رأي النّاس ما دام صوتك الداخلي بسلام.

ردّت رهف: صحيح... لكن توالى كل شيء عليَّ.

– سامحيه على فعلته لأني رأيت النّدم والحزن بأم عينيّ، لا بأس لا تتحدّثي معه إن صادفته في الطريق لكن أخبريني هل ستسامحينه؟

ردّت رهف: سامحته.

ابتسمت مريم وقالت: تصبحين على خير... لا تكثري التفكير.

– أحلاما سعيدة... واكتملت المكالمة.

حزين وتائه، حامل لقلمه ويعضّه من أطرافه من شدّة توتره وصورة دموع رهف لا تفارقه.

– آه مني، هل ستسامحني رهف؟ هذه المرة سأعلن حبّي لها ولن أخجل، لن أتردّد أبدا... كانت ليلة حزينة نوعا ما على كل منهما لما حدث اليوم.. مرات تأتي حالات من البرودة والخصام لكنّها تمر، لنعلم ما مدى تحمل الطرفين لبعضيهما.

تتجه رهف صباحا إلى الجامعة كعادتها ولم تنتبه لرؤية زين لأنه كان يراقبها من بعيد بصمت ويحدّق في تلك الخطوات البطيئة وللكتب التي تحتضنها دوما، إنهّا رفيقتها الدائمة، لكنّها لاحظت ظله فعلمت بأنه هو، وفجأة بدأت تسرع كي تتجنب الحديث معه بعد ليلة مريرة مرت عليها بالرغم من أنّ مريم طلبت منه ألا يكلمها، لكنّه لم يتمالك نفسه...

نادى زين عليها: رهف... رهف، توقفي لطفا.

لم ترد رهف وواصلت المسير إلى أن أمسك بيدها وضغط عليها فتألمت وقالت وهي غاضبة: اترك يدي أنت تؤلمني.

– إلى أن تتوقفي كي أشرح لك موقفي.

– لا أستمع إليك ولا يهمني لا أنت ولا موقفك، لا تلاحقني ولن أحادثك بعد الآن.

احمّر وجه زين من قساوة كلماتها ثمّ قال: كلام الطلبة أثار أعصابي لم أقصد أن أضربك، ليت يدي قطعت في تلك اللحظة على أن أفعلها، الغيرة أحرقت أضلعي.

– ألا تثق بي؟

– لن تجديني بعد الآن، صرت شخصا لا تطيقين رؤيته، سأرحل!

تعمد زين قول هذا ليرى ردّة فعل رهف، فالكلام الذي قالته له منذ

لحظة يريد أن يتأكد من صحته ولا شيء سيؤكده سوى العيون.

رفعت رهف عينيها والألم يملؤهما وعبارته كانت كصاعقة على قلبها، صمتت وزين يتمتم في نفسه: اصبر قليلا ربما ستقول لك شيئا ما...

تنحنح زين بصوته وقال: كنت شابا متهورا فوضويا، لكن منذ أن صادفتك شراع حياتي تغيّر مساره، بفضلك أعدت ترتيب سفينتي وطموحاتي، أسقيتني الأمل بالرغم من أني أعلم بأنك أكثر من يعاني الألم، لا أكذب ولن أنكر بأني وقعت في حبك، واستوليت على ذاكرتي، أسعد كثيرا حين أراك، وأغار عليك من الهواء الذي يلمسك.

رهف مع نفسها تتمتم وتنظر إليه وهي غير مصدقة: ربما هو حلم هيّا استيقظي... تائهة تماما ولا تسمع إلا صوت الرياح التي كانت تهبّ وهي دافئة كأنّ الزمن توقف عند تلك اللحظة، دقات قلبها تتسارع وحرارة تسري في جسدها كادت أن تفقد وعيها، حملقت في عينيه لفترة لتجده سيقول كلاما:

- أريدك أن تكوني فرحتي!

تلاحمت الأرواح مع بعض لتسقط دمعة من عين رهف ليمسحها زين بكل لطف..

- أعلم جرحتك البارحة، لكنّي أعدك لن أجعلك تتألمين أبدا، ابتسمي لطفا.

هربت الكلمات وكانت العيون هي التي تتحدّث، خان التعبير رهف، في تلك اللحظة تحركت أوردة القلوب وتدافعت الأشواق، العيون صارت كألحان لأغنية والقلب صار وترا لتلك الألحان ثمّ

قالت رهف: وإنّي أحبك يا زين!

تراقص قلب زين من سماع تلك الكلمة ثم استرسل في الكلام قائلا: كنت أعلم أنك تحبينني لكن أردت أن أتأكد، حدسي لم يخفق هذه المرة، الحمد لله سأدفنك في قلبي يا رهف.

لتقول الأخرى: بين أروقة شراييني، هناك ستبقى، قد أخفيتك عن الذين حولي وسأرفع اسمك في صلاتي... وابتسمت.

«هناك في تلك اللحظة التي لا نتوقع فيها التحدث تغمرنا السعادة ونبتهج، على أصوات الرياح الدافئة والسحب المغيمة أعلن بداية حب من طرفين علم كل منهما بحب الآخر له».

مضت الأيام، ولم يبخل زين على رهف بدعاء وحب واهتمام من بعيد كي لا يثير لها المشاكل، كان كصديق ورفيق ولكنّه حبيب، كانت محبتهما لا تحتوي على شكوك، لكنّها تفوق معاني الحب والصداقة إلى مدى بعيد جدّا، نادرا ما يتواصلان خلف تلك الشاشة الإلكترونيّة، تجمعها صورة طفلة صغيرة حلوة الملامح، أو موضوع حول الثقافة، وأغلب الأوقات يسود الصمت محادثتهما، لا يتحدّثان كثيرا، ولا يعبران عن حبهما، لكنّهما يرفعان يديهما لربّ السماء بأن يجمعهما تحت سقف واحد... فالغياب لم يؤثر عليهما بل جعل الحب بينهما يكبر ويكبر، كانت رهف تخاف على زين كثيرا من تقلبات الزمن المفاجئة.

كتب وأوراق، سهر وتعب، مشروبات دافئة وليالٍ ساهرة، وآباء يدعون، كانت تلك فترة الامتحانات بعد تعب أخذ من الجميع وسلب منهم لذّة النوم لتحقيق المراد الأكبر ألا وهو النجاح، أعلنت النتائج ليأخذ كل واحد علامة مرضية على قدر تعبه، مازالت رهف ومريم تحضران كلّ يوم لمذكرتهما...

اليوم يوم عطلة الأسبوع، ضجّة كبيرة في بيت زين.. فوق الأريكة وفوق طاولة بها صحون من الحلويات يشاهدون برنامجا كوميديّا، إذ بالباب يدق فقام زين لفتح الباب ليجد ساعي البريد هناك.

ساعي البريد: مرحبا.

زين: أهلا، تفضل يا عم.

ساعي البريد: هذه الرسالة لكم.

زين: شكرا، أعانك الله.

دخل زين إلى المنزل وقال لأبيه بأنه قد استلم رسالة..

الأب: افتحها لنرى ما الذي تحتويه!

بدأ زين بفتح الرسالة وقرأ الكلمات التي فيها فاغرورقت عيناه، وكانت تلك الكلمات كصاروخ دخل صدره وشقّه، تغيّرت ملامحه كليا فلاحظت أريج ذلك وقالت:

– ماذا هناك؟ لماذا أنت صامت؟ ماذا كتب فيها؟ تكلم يا زين!

احتضن زين أخته بقوة وقال لها: الخدمة العسكرية يا أريج.

وقف الأب بصمت وكتم حزنه وقال: لا تقلقي يا أريج، سيمضي الوقت سريعا ويعود.

زين: عليّ أن أحضّر نفسي يا أبي.

الأب: ستلاحقك دعواتي دائما، هذا هو القدر يا ولدي، إن شاء الله تعود إلينا بسلام.

صعد زين إلى غرفته وتذكر رهف، كيف ستتحمل هذا الخبر بعد كل ما مرّ عليها؟!

فراق موحش

«ألم الفراق مؤلم ومن الصعب أن تألف روحا فتهجرك فجأة، أن يرحل أحدهم عنك دون وداع فذاك يمزق القلب! وما أشدّ البكاء دون دموع وما أصعب الألم دون صرخات... هل نفترق للأبد؟ هل تبقى الذكريات؟ بالتأكيد الذكريات تبقى عالقة في كلّ مكان هذه الحياة خلقنا لكي نفترق، الحب يستمر إلى أن يأتي الوصال وتجتمع الأرواح من جديد، هناك أيام تبقى ذكراها معنا وفينا، فالحب الطاهر لا يمحوه الزمن والحب لم يخلق ليوم فقط بل خلق ليعيش طويلا.. الظروف دوما هي التي تقرّر والودّ لما يكون صادقا فإنه يستمر».

يوم جديد لرهف وثقيل على الحمام الذي سيهاجر، لم تلحظ رهف وجود زين في الجامعة كما اعتادت...

ودَّع زين أهله في ذاك الصباح واتجه إلى بيت زياد ليعلمه بالخبر، فهو الأخ المخلص والصديق القريب إليه.

رحّب زياد بزين كثيرا، لكنّه لاحظ وجود أمر ما يقلقه فسأله:

– زين ماذا هناك؟ هل حدث خطب ما في العمل؟ لست كعادتك مبتسما؟

– للأسف يا صاح آن موعد الفراق!

تعجب زياد من قوله وضحك: لا تفجعني، يبدو أنها مزحة منك، عن أيّ فراق تتحدّث يا صاح؟!

– لست بمازح، أنا أتكلم بجدية، ألا ترى الحال التي أنا عليها؟ جئت لأودعك وأترك لك وصية ربّما لا أعود فمن يدري ماذا سيحدث

لي.. كلّ أسراري هي في قلبك وسرّي الأكبر تعلمه جيّدا لا تدع أيّ شخص يؤذي رهف هي في أمانة الله وأمانتك، لن أستطيع أن أودعها حتما سأنهار ولا أتحمل رؤية الدموع في عينيها لم أعتد الفراق من قبل... ثمّ قال زين بخيبة: ليته كان شجارا بيننا كنت سأراضيها، لكنّه فراق سيطول، قدِّم لها هذه الرسالة.

اتصل زين بصاحب المتجر وأخبره بالذي حدث وودعه وبدوره صاحب المتجر تمنى له السلامة.

كان مشهدا حزينا للغاية، قد تظن أنّ الرجل بلا إحساس، لكنّه يذرف الدموع في داخله دون أن يبديها، ضمَّ الصديقان بعضهما ورافق زياد زين إلى محطة الحافلات والحسرة تملأ قلبه، نزلت قطرات من عيني زياد... فأحيانا لا يمكننا أن نكبت مشاعرنا لكنّها مشيئة الله، ثمّ افترقا عن بعضيهما، بينما أريج بقيت في غرفتها ولم تذهب للعمل، أمّا أبوها فظلّ صامتا لم يتفوه بكلمة.

لطالما حدث زين زياد عما يحلم به فكان دوما يحلم بأن يؤسس بيتا صغيرا مع رهف ويعيد إليها بهجة الأيام؛ كان زياد المؤنس لزين في ظلماته، لكن زياد خائف من ردّة فعل رهف وكيف سيعطيها الرسالة، بقي يتجول في الجامعة ولم يقترب من كلية رهف كي لا تراه وتسأله فليس له استعداد ليواجهها!

كانت أمسية ثقيلة على رهف فهي لم ترَ زين اليوم مما جعلها في حيرة من أمرها، تصفحت حسابها فلم تجد أيّ رسالة فذهبت إلى أخيها كي تغيّر نفسيتها واحتضنته وطوّقته بذراعيها وقصّت له حكاية إلى أن غرق في نومه، وراحت إلى غرفتها لتنام لكن النّوم أبى أن يأتي هذه الليلة، فبقيت تراقب السماء والنّجوم.

ها قد جاء الصباح ليعلن عن بداية يوم جديد، فالصباح يوحي دوما بذهاب الأحزان، هو يوم آخر وفرصة ثانية لبعض النّاس على تغيير حياتهم أو بداية قصة جديدة لهم.

وصل زين في تمام الساعة السابعة إلى مدينة الجنوب بعد رحلة متعبة وشاقة «بسكرة « وهناك وجد محيطا مغايرا لما كان يعيشه فالجوّ متغير، وأُناسٌ بمختلف الأشكال والأعمار.

تغيّب زياد عن الدراسة لأيام... أمّا رهف فقد ظلت تحت سقف الأسئلة التي قتلتها.

مضت الأيام بسرعة البرق، ألفَ زين الأشخاص هناك وكلّ ليلة يجتمعون للحظات ويقصُّون طرائفهم وانسجم معهم بسرعة وخفة وهو الذي كان ما يغلب عليه طابع الفكاهة كثيرا، أحبه النّاس هناك من مختلف الأعمار وبعد تدريباتهم اليوميّة الشاقة يقومون بجلسات بين فينة وأخرى للتحاور والتحدث عن عادات كل مدينة.

«لكنّه وطنك وأنت حاميه بدمك وقلبك، فحب الوطن من الأشياء العظيمة، حب فطري جُبِلَ في نفس كلّ شخص وهو أعظم جهاد».

الوطن هو الحبل السري الثاني الذي يجمعنا بأمّهاتنا وإخواننا، هو نفسنا ونبضنا ومنه نستمد كياننا الإنسانيّ وانتماءنا الوطنيّ، حروف صغيرة لكن كلّ حرف وراءه أوتار من السلام تتشكل مع بعض ويربطها الفداء، الوطن جدار صلب يحميك فحمايته واجب على أبنائه وتطويره مسؤوليتهم؛ نفديه بأرواحنا كما فداه العربي بن مهيدي ولالة فاطمة نسومر، كما ضحّى من أجله «مليون ونصف مليون شهيد».

بلادنا الجزائر الحبيبة بصحرائك وفيافيك، بجبالك الشّامخة وأنهارك المتدفقة جميلة أنت يا حبيبتي، يا أرضا طاهرة، يا صانعة السلام

لدول الجوار، أنت الأمّ الثانية لبلد الليمون والزيتون، أنت الغذاء للقدس المحروقة أصابعها، ترعرع في حضنك الكثير فسقيتهم بغرفة مائك وحميتهم تحت سمائك من قبضة ترابك، ثورتك ثورة مباركة وانتصارك حقّ، شعبك لا يعرف الاستسلام وبقي ينشد ألحان الأمل، تلك الأرحام أنجبت أعظم الأبطال والنّبلاء، ناضلنا من أجل حريتنا، ومازلنا نقدّم دروسا للعالم أجمع، شعبك دمَّر مصطلحات المستحيل وهدَّم مخيّم العدو ولم يأبَ بتغيير عاداته، لم يرض بالذل وكافح من أجل كرامته، فسلام عليك يا بلدي، خضنا المعارك لنحقق الانتصار وخدمنا الوطن بصدور أبيّة فنحن بضعة من الوطن ونبقى داخل أوطاننا إلى أن يحين الأجل... شهداء قد نسجوا الاستقلال بأرواحهم الطاهرة؛ ففي جزائرنا آيات المجد وعناوين الفخر، ترفرف أعلامك في السماء كطائرة ورقية لتنشد سمفونية الحرية وفي ألوان علمك نبع أمل وشهامة... أنا جزائري، معطاء ومقدام.. فالأشعار لا تصفك يا أيتها الوردة البيضاء والكلمات تسقط أمام عظمتك، مازال وطني قويا ثابتا بالرغم من الفيروسات التي تحيط به من كل مكان، مازلت يا وطني كصقر يحلق في السماء، كأنه إنسان يجري في عروق دمائنا، هجرك الكثير من أجل قضاياهم لكنّهم سيعودون لأنكّ أنت الرئة النّظيفة بنسيم أكسجينك، قد تغادر الأقدام لكنّ القلوب تبقى عالقة بين رائحة التراب، تبقى ذكريات الوطن سجِلا لكلّ عابر مغادر، والانفصال عن الوطن نسمة وحشيّة مؤلمة، عاشت الجزائر حرة طليقة مستقلة!

فكما قال محمد العيد آل خليفة:

ولي وطن حبيب لي خصيب وقفت على محاسنه هوايا

تذود عن الجزائر مرهقيها وتحيا في أراضيها رضايا

مظهر زين ثابت كالجبل يضحك ولا يبالي لأيّ شيء، لكن أقسى شعور أن تضحك وداخلك يكتوي، يعتصر قلبك شوقا لرؤية أهلك وأحبائك، لمدينتك التي فارقتها، لتلك العصافير التي اعتدت سماعها ولتلك الوجوه التي ألفت رؤيتها، لأيامك رفقة أصحابك ولمحبوبتك.. كبح زين شوقه ونار في صدره تشتعل، أشعلها لهيب الفراق.. قد تفترق الأجساد لكنّ الأرواح تبقى متصلة، فالتلاقي ليس حضنا ورسائل، لكنّه شعور دائم فهناك قلوب تشعر بنا بالرغم من أنهّا بعيدة وأناس نعزهم دوما ببالنا... الفراق موجع، والحنين يمزق الفؤاد، والبعاد يزيد الحب جمالا.

مضت أسابيع ورهف لا تعلم أين زين، لكنّها فقدت صبرها وطلبت من مريم أن تسأل زياد عنه، فمريم لها صلة بأريج من بعيد فقط، أمضت رهف تلك الأيام مبتسمة في النّهار وحين مجيء الليل ينسدل ستار الحنين على قلبها ويبدأ عقلها بخوض حرب جديدة مع الأفكار وصراع بين مدّ وجزر لم يرحمها أبدا، أمّا ذاك الأب فقد اشتاق لولده وتلك الأخت الحنون تظل تفكر فيه إنه قطعة من الروح.

مرض زياد في تلك الفترة وتغيب عن الجامعة وهذا ما أثار حيرة مريم ورهف ولم يستطع زياد إرسال الرسالة لرهف، وفي أمسية يوم الثلاثاء توجهت مريم إلى مكان عمل أريج فلم تجدها فذهبت إلى بيتهم، استقبلتها أريج بترحاب وقدّمت لها القهوة..

- كنت في مكان عملك ولم أجدك يا أريج.

– كان دوامي أمس واليوم عطلتي، خيرا؟

– أريد أن أسألك عن زين وزياد إني لا أراهما في الجامعة منذ فترة هل حصل لهما شيء؟

تنّهدت أريج تنهيدة طويلة يبدو عليها الأسى وقالت: زين ذهب إلى الخدمة العسكرية منذ أسابيع، أمّا زياد فقد علمت من أبي بأنه مرض مرضا أطرحه الفراش.

– يا للهول كلّ هذا حدث وأنا لا أعلم...

– هل تحتاجين زين في شيء ما؟

تلعثمت مريم في الكلام ثم استرسلت قائلة: أوصيته على كتاب ليحضره لي من زميل له لكن لا بأس، حصل خير، إن شاء الله يعود لكم سالما.

– إن شاء الله يا مريم.

وانصرفت مريم من هناك بخيبة كبيرة لم تذهب في تلك الأثناء إلى بيت رهف وبقيت تنتظر قدوم الحافلة لتذهب إلى بيتها... وبينما الحافلة قادمة صعدت مريم لتجد زياد هناك في كرسيّ لوحده يراقب الطريق إلى أن قطعت ذاك الصمت وألقت عليه التحية..

– السلام عليكم يا زياد كيف حالك؟

استفاق زياد من شروده وقال: وعليكم السلام يا مريم، بخير الحمد لله.

– لقد سمعت أنك مريض أخبرتني أريج، الحمد لله على سلامتك.

– شكرا لك هذا من لطفك، لقد تحسنت اليوم وغدا سآتي للجامعة

بإذن الله.

– وزين متى سيعود؟ لماذا لم تخبرني بأنه ذهب؟ كيف سأشرح هذا لرهف؟ طوال اليوم نبحث عنه... أنا خائفة عليها!

– وأنا مثلك، لا أنكر الأيام الأولى تهربت كي لا أواجهها لكن الجلوس في البيت ليس حلا كنت ذاهبا إليها.

– رزقها الله الصبر وحسن العون، أخبرها إذن بما حصل تسمع منك وهذا يكون أفضل لأنكّ أنت القريب منه.

توقفت الحافلة ونزلت مريم بعد أن ودّعت زياد، وهو الآخر توجه إلى الحديقة لعله يجدها هناك..

قلق أصاب مريم من ردّة فعل رهف وحزن اعترى قلبها من أجل صديقتها، على ذاك الكرسيّ جالسة رهف تقرأ كتابا أهداه لها أستاذها رضوان، فقاطعها زياد.. بعد أن رأته وقفت بسرعة ورأت الحزن الذي في عينيه ليبدأ قلبها بالخفقان خشية أن يكون مكروه ما أصاب زين.

– مرحبا يا رهف.

– زياد؟ أين كنت؟ هل انشقت الأرض وبلعتك؟ كيف حالك؟ وأين هو زين؟!

استرسل زياد في الكلام بعد تنهيدة عميقة: كنت مريضا ولازمت الفراش لأيام والحمد لله تحسنت... ثمّ صمت.

– أكمل الحديث وزين أين هو؟

– رهف، تمالكي نفسك ولا تصرخي رجاء، لم يحدث له مكروه.

قاطعته بغضب: أكمل ولا تصمت لأنك تفجعني هكذا!

– ذهب إلى الخدمة العسكرية منذ أسابيع ولم يستطع أن يأتي ويخبرك، إنه لا يطيق الوداع وقد ترك لك هذه الرسالة، تفضلي وأعتذر لأني أطلت تسليمك إياها.

اندهشت رهف من قول زياد ثمّ قالت بوجه شاحب: آه، أتمنى أن يرجع سالما.

لاحظ زياد تلك الخيبة المرسومة على وجهها، لكنّها كانت واقفة بثبات وبقلب هشّ..

– لا تخافي يا رهف، زين قوي وشجاع سينهي واجبه ويعود، أعلم الأمر صعب للغاية لكن لا اعتراض على حكم الله.

– الحمد لله، شكرا لك، طهورا إن شاء الله، أستأذن منك... سأنصرف.

جمعت نفسها وما تبقى منها من شتات بصعوبة حاملة لتلك الرسالة ببقايا قلب مكسور، ساقتها رجلاها إلى المقبرة التي أخذت أقرب الناس لديها، كانت المقبرة في تلك الأثناء شبه فارغة، هناك من يبكي وهناك من هو رافع يديه ويدعو للميّت الذي تحت التراب، ورجال يحفرون قبورا لأجساد جديدة ستأتي بعد قليل.. حال الدنيا هكذا نحن نزور المقابر ويوما ما هناك من سيحفر قبورنا ويزورنا فماذا حضّرنا لذاك المكان؟ هل صلينا صلاة صحيحة!؟ هل أطعنا الله بحقّ؟! فعلا.. خلقنا من تراب وسيلفنا التراب لنرجع إلى من خلق آدم من تراب؛ الموت يخطف كلّ يوم لا يعرف صغيرا أو كبيرا، لا سليما أو مريضا، فقيرا أو غنيا، فالموت حقّ وحقيقة يجهلها الكثير، كثيرون هم من يدّخرون الأموال ويظنّون أنهّم سيبقون أحياء، ظانين أنهّم سيحقّقون كلّ ما خططّوا له فهمُّهم الوحيد الربح والخسارة وجمع

الأموال وامتلاك العقارات، لكن هيهات كم من إنسان كان عائدا إلى بيته فخطف ملك الموت روحه وكم من شخص معافى مات وهو في صغر سنّه، هذه هي حال الدنيا فهي دار الغرور والآخرة هي دار الخلود والبقاء.

يا أخي، يا أختي.. كن دوما مستعدّا لذاك اليوم واعمل من أجله، أنفق مالك في الخير لا في الشّر ووزعّ ابتسامتك في كلّ مكان تعبر عليه، انصح ووجِّه، كن داعيا للخير دوما فكلّ معروف صغير يرفعك درجات؛ فعداد كتابك ينتظر دوما منك عملا تزيد به حسناتك فاملأه ولا تعتمد على النّاس بعد مماتك... فربّما ينساك النّاس ولا يتصدّقون عنك ولا يقرؤون لك ولو صفحة من القرآن الكريم، حرّر نفسك من مكائد النّفس الأمّارة بالسّوء واعلم أنّ كلّ ميّت يتمنى لو أنه يعود إلى الدنيا يوما واحد ليسبّح ويحمد الله، وماذا عنك؟ تضيع الساعات ولا شكّ أنك استمعت لخطب كثيرة حول الموت والحياة... تتأثر في البداية وتبكي لكن ساعات فقط وتعود لفعل المعاصي! وصدق الله عز وجل في كتابه: «وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ» المنافقون ١٠.

«فنصيحتي لك يا من تقرأ حروفي الآن اعمل الخير قدر المستطاع ولا تندم على حسن نيّتك وطيبة قلبك؛ فالمؤمن الحق قلبه طيّب لا يحقد ولا يكره، كن شخصا طيّب المعاشرة وسيعطيك الله أكثر مما تتوقع، فالدنيا فرصتك لتزرع إمّا خيرا وإما شرّا وفي الآخرة ستجني ما زرعت فاجعل زرعك خيرا مثمرا، فلا أبوك ولا أمّك ولا المال سيكون معك، هناك ستلقى فقط ما صنعته يداك، فكن ذا أفكار نبيلة ونفس صبورة وقلب قنوع، فالدنيا ما أنت فيها إلا عابر لا مستقر، وذكّر نفسك دوما

بهذه الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ» الحشر ١٨، واسأل نفسك دوما ماذا قدّمت في دنياي؟».

بقيت رهف واقفة أمام قبر أبيها تنظر إليه، ثمّ قرأت فاتحة الكتاب ووضعت على قبره قطرات من الماء وقطعت الطريق إلى الجهة الأخرى من المقبرة لتزور قبر جدّها الذي كان بمثابة أبٍ لها...

– آه يا جدّي إنّي أفقد قوتي، ليتك معي تقصّ لي الحكايا لأستعيد قوتي منك، أفتقدك كثيرا، قست الأيام عليّ وأنا زهرة عشرينيّة، لكنّك تنثر الصّبر عليّ دائما كلّما تذكرت حكمك... وبكت بصمت... حال البنت لما تفقد أهلها، فلما تفارق البنت أباها تحس أنهّا ليست في مأمن.. عارية دون وشاح يحميها من صقيع الأيام فكما يقال: «البنت ابنة أبيها».

ملاك صغير، براءة تامة، قلب حنون، لكن ماذا عن الضّجيج الذي يهزّ داخلها؟! فرفقا بها يا وجع!

انصرفت رهف إلى بيتها وعند ولوجها إلى البيت لم تجد أحدا، صعدت غرفتها وضيق احتل قلبها، ترتجف شفتاها لتستلقي على السرير وتنظر إلى سقف الغرفة بصمت؛ عقلها مكتظّ بسهام الأسئلة التي لم تتوقف منذ تلقيها ذاك الخبر، خنقتها دموع مكتومة وحفيف الأوراق حرك ذكرياتها، وقلبها يموج بين اليأس والرجاء والشّوق... حزينة عيناها التي تلتف بالسّواد ثمّ قرّرت أن تدخل إلى المطبخ لتحضّر بعض الحلويات كي تنسى الألم قليلا! وتريح نفسها التي باتت متعبة من هذه الأيام الوَعِرة واستمتعت بتحضير ذلك، راقبها هيثم من بعيد والتقط لها صورة وهي تضحك، ثمّ حمل كيس الشوكولاتة المذاب وكتب اسمها فوق قطعة من الحلوى لتنفجر رهف ضاحكة.

– اضحكي، يبدو أن خطي ركيك... عندما كنت صغيرا كنت

شغوفا بالطبخ كثيرا لكن ليت الأيام تعود، مشاغل الحياة قد ألهتني عن فعل ما أحب... أحيانا يضطرّ المرء أن يمشي في طريق لم يرده يوما لكنّ الله أراد به خيرا، استمتعي يا رهف بكلّ أوقاتك ففترة الشّباب رائعة، وافعلي كل ما تحبينه فمهما طالت الهموم فإنّ مصيرها الزّوال فدوام الحال من المحال، واعلمي أنّ كلّ شيء يعوَّض إلّا راحة البال إن امتلكتها فأنت الأغنى على الإطلاق والبقاء يبقى لذي الجلال فنحن مسافرون، فاجعلي تذكرة سفرك مربحة.

- إن شاء الله يا عمّي.

كلمات هيثم أتت في الوقت المناسب، فاطمأنت رهف وسلمت أمرها لربها، فالغائب مهما طال غيابه سيعود.

ولأول مرة يحضّر هيثم رفقة رهف مأكولات، فكان الطعّام من صنع يديه والحلويات من صنع يديها وكلّ ذلك بمناسبة عيد ميلاد أمّها التي بلغت الخمسين.

وصلت خليدة وريماس وأمّ هيثم ومحمد إلى البيت وسمعت رهف أصواتهم فأسرعت لتخفي قالب الحلوى وقالت لهيثم: لا تدعهم يحسون بشيء، ستكون مفاجأة لأمّي.

- عمّتك تعلم بالأمر.

- جميل، هي لا تنسى أيّ عيد ميلاد.

فتحت رهف الباب وعانقت ريماس ولعبت معها ثمّ أمسكت الأكياس وأدخلتها إلى المطبخ وضجيج عالٍ بين ريماس ومحمد فقد تعود عليها، وقد اندهشت السيدة حليمة من الطاولة التي حضّرها هيثم لهم. كانت سهرة جميلة واكتملت بإطفاء الأضواء والتصفيق

والغناء لزينب في عيد ميلادها فأعجبت بما فعلته ابنتها لها والتقطوا صورا للذّكرى، ابتهج المنزل وتوطدت العلاقات وازدادت الألفة بينهم، لكن حزن رهف مكتوم بداخلها ثمّ بعد أن تناولوا الحلويات شرعت خليدة في التحدث قائلة:

– أمضيت أوقاتا جميلة في هذا البيت العريق الذي احتضن الأحزان والأفراح، وها أنا ذا سأزفّ لكم خبرا ليتمّ فرحتنا وبهذا الخبر ستكون ليلة مميزة.

أجابوا بصوت واحد: وما هو هذا الخبر؟

– سيكون في عشنا طفل آخر.

عانقت رهف ومحمد عمّتهما وفرحا كثيرا وعبّرا عن سرورهما للمولود الذي سيقبل، أمّا هيثم فقد طار من الفرح وباركت زينب وحليمة لها بعد أن أمطراها بدعائهما ...

– الأرض لا تسع فرحتي يا خليدة، الحمد لله سيكون لرياس أخ يحميها.. احتضن هيثم زوجته وقبّلها وبارك لها وانطلقت من قلبه أسمى عبارات الحب، فحبه لها لا يوصف فقلباهما ملتصقان ببعضهما البعض منذ أول لقاء جمعهما، فأسسا أسرة وتحمّلا صراعات الحياة وأذاقهما الله السعادة لجمال قلبيهما.

نام الجميع بفرحة ما عدا رهف التي لا تدري كيف ستتعايش مع هذا الفراق الموحش!

أحيانا نفقد شخصا واحد يجعلنا نفقد شغف الحياة.. روحها تتخبط دوما وذاك الفؤاد يعزف ألحان العذاب، تداخلت الأصوات والمواقف والكلمات في ذاك العقل، أن تألف وجود شخص ثمّ يرحل للحظة

شعور مرّ، إحساس خانق يجتاحها وضجيج مدوٍّ وأفكار تتطاير من هنا وهناك، طلت من النّافذة لترى النجوم.. ثمّ نامت.

مرت الأيام بسرعة ورهف ومريم تجتهدان صباح مساء لإكمال مذكرتهما، أمّا مريم فقد رتبت أمورها من أجل الخطبة، فجوزيف ينتظر إنهاءها للسنة الدراسيّة ليتقدّم إليها رفقة أمّه وإخوته الذين شاء الله وهداهم واستقرّوا في الجزائر، وفقه الله عز وجل وكان سببا ليغيّر مسار حياتهم جميعا، مضت أيام عصيبة عليه ومشاحنات بينه وبين أهله، لكن في النهاية تعبه لم يذهب هباء، وصبره عوّضه عن رؤية أهله مثله مسلمين مسالمين، كانت هناك بعض الصعوبات في الإجراءات الإدارية ودخولهم للجزائر، لكنّها لم تكن مانعا بل واجهوها بكل صبر، وغيّر جوزيف اسمه ليصبح يوسف.

كن أنت

«لا تسمح لأحد أن يسلخ لك جلدك، كن كما أنت ومهما وجدت من إغراءات فكن ثابتا ومقتنعا بكلّ قراراتك، الحياة جميلة فقط نحن من نتذمر، انظر إلى حال الكثيرين الذين اعتنقوا الإسلام كيف هم فرحون ومسرورون، والأكبر من ذلك هادئون لا يشتكون حزنا ولا تذمرا، يبكون عند قراءة القرآن وكيف حالنا نحن أمّة الإسلام نغتاب ونسرق! نكذب ونرتشي! ونفعل النّواهي! إن كنت مسلما فاجعل أخلاقك تثبت ذلك... أين نحن وأين ديننا؟ لقد ابتعدنا كثيرا عن الدين فابتلانا الله، لا أنكر أنّ الحزن يصيبنا لكن لماذا نستمر في اليأس وكلّ شيء قد كتبه الله لنا يراه خيرا؟ لماذا نبكي عند سماع أغنية ولا نبكي عند قراءة القرآن؟ لماذا لا نخصِّص عشر دقائق لتفسير خمس آيات يوميا وفهمها؟ لماذا نظلّ عاكفين على مواقع التواصل الاجتماعيّ ولا نعتكف الصلاة بخشوع؟».

رسالتي لك: «اجعل الآخرة أكبر أهدافك ولا تغتر بزيف الدنيا».

لم يتبق الكثير عن اليوم الموعود الذي ينتظره كلّ طالب جامعي، وقد كان زياد دوما يدَعون لمريم ورهف في ذلك، لأنّ له من الخبرة ما يكفي لتتعلما منه، فزياد له علاقة وطيدة بالكتب كرهف... فكان دوما يبحث معهما وتستشيرانه في ذلك بالرغم من تخصصه المغاير إلّا أنّ له ثقافة واسعة في الأدب العربي.

في أحد الأيام رجعت رهف إلى بيتها مساء لتجد أمّها مصابة بالحمى وبجانبها السيدة حليمة التي اعتنت بها، تضع الضمادات على رأسها لتخفّف من حرارتها، بعد أن اطمأنت على حال أمّها ولجت إلى

غرفة محمد لتجده منعزلا ومغطيا وجهه بوسادته ويبكي، فاحتضنته واستطاعت أن تغيّر ذاك البكاء إلى مرح بعد أن طمأنته على حالة أمّه، حملته بين ذراعيها وقالت:

– ما به بطنك ممتلئ... ماذا أكلت اليوم؟! لقد أصبحت ثقيلا يا أرنوب.

ضحك محمد ودغدغ أخته لتنفجر ضحكا والدموع تسيل من عينيها وراح يقبّلها، منحته أقلاما وأوراقا وشرعا في الرسم في جوّ هادئ، ثمّ تناولا العشاء وأديا صلاتهما، ونام بين أحضانها بعد أن ذهب إلى أمّه ورآها واحتضنها.

نام محمد... وبقيت رهف في جوف الليل تدعو أن يشفي الله أمّها..

«يا رب موقنة من رحمتك استودعتك أيامي فلا تجعل لي هما يثقل صدري».

انشرح قلبها وهدأت.. فلا شيء يجعلنا أقوياء كأن نشكو ألمنا للخالق الأحد الصمد، فعندما تذهب إلى الله مكسور الجناحين تعود بكامل قوّتك!

نامت حليمة بعد يوم متعب وبقيت رهف بجانب أمّها بعد أن انخفضت حرارتها وطلبت منها أن تخلد للنّوم.

وقت متأخر من الليل، يرتشف كوب قهوة دافئ ومستلقٍ على الأريكة ويراقب السماء الواسعة فإذا بهاتفه يرنّ، ردّ قائلا: من المتكلم؟

– ما بك يا صاح ساهرا، ألم تعرفني؟!

ضحك زياد وأجاب بفرحة: هذا أنت، اشتقت إليك... تركت فراغا عندما رحلت عنّي، كيف حالك أيها الجندي؟ قلقت عليك..

هل الأمور تسير على ما يرام؟!

زين: ماذا عساي أقول... ألفت المكان لكني أحترق شوقا للجميع! كيف حال رهف؟

– لا أخفي عليك يا زين إنهّا منهارة من الداخل وتظلّ مبتسمة طوال الوقت.

– بلغّ سلامي إليها، عليّ أن أغلق الآن، عندما تسمح الفرصة سأتصل بك مرة أخرى، لا تنس أن تخبر والدي أني بخير.

بهذا الاتصال القصير استعاد زياد نفسا جديدا.

وفاء النخليل

الصداقة حين قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتويت».

«الصديق من يساندك في جميع حالاتك، من يتقبل مزاجيتك ويحسن عونك، من لا يرحل عنك إذا صرخت في وجهه، من يراك صامتا فيتفهم ضجيجك، والصداقة ليست ليوم بل لأعوام تتخللها مواقف ومحن، هناك فقط ستعرف خليلك».

جالت ذاكرة زياد إلى الماضي وبدأت الذكريات تزور مخيلته واحدة تلو الأخرى برفقة الأخ والصاحب زين.

«هي أقدار وأمنيات معلقة بقلب كل واحد منّا، فما يكتبه الله لك خير مما تحب وأعظم مما تتمنى وأكثر بكثير مما تطلبه وفيه حكمة لا يعرفها إلّا خالقك، فهوِّن على نفسك ولا تكلف نفسك أمر التفكير الكثير، أعلم أنك تردّد دعوات كثيرة وتتمنى حدوثها فلا تخف ستتفاجأ بتحقيقها يوما ما، واصبر وستأتيك كما تمناها قلبك، فالذي أنبت بين الحجر زهرا أيعجزه أن يزهر لك أمنياتك؟!».

مريم تنتظر ملاقاة يوسف بشوق وزين يحترق لأهله وحبيبته، وهيثم وخليدة ينتظران قدوم الطفل الجديد، أمّا تلك الأمّ الحنون فتنتظر رؤية ابنتها في حفل التخرج بفارغ الصبر والسيدة حليمة تعدّ الأيام لترى فلذة كبدها حراّ طليقا من السجن! وربما تتحقق الأماني نعوّض بأفضل منها...

كانت ليلة مختلطة بجميع المشاعر والأحاسيس، فالحقل تجده يتحمّل تغير الطقس وكلّ شجرة تتحمّل عواصف الرياح وكلّ سفينة في وسط

البحر تطفو لتصل إلى وجهتها، وكلّ نحلة تخدم خليتها وتدافع عنها؛ كذلك الإنسان كلما اجتهد وأخلص نيّته أعطاه الله مراده، فاجعل يا صديقي التوكل شراعا يحرك سفينتك وحتما ستصل إلى بر الأمان.

السيدة حليمة صامتة في أغلب الأحيان، عندما تلمحها للنظرة الأولى تبدو قاسية، لكن عندما تتحاور معها تراها طيّبة، منعزلة عن الناس ولا تحب الضجيج، عندما تنظر إليها لا يبدو عليها أيّ حزن أبدا، امرأة قد مات زوجها الأول وهي في سنّ صغيرة وترك لها ولدا اعتنت به وكانت له الأب والأم وهو هيثم، بقيت تعمل من أجله في قسم النساء للولادة إلى أن تقدّم لخطبتها أحد جيرانها الذي ينحدر من أصول تونسيّة، فأسست معه عائلة، وأنجبت طفلا آخر وهو إبراهيم، وبعد سنوات انتقل لبيت جدّته وجدّه اللذين تحمّلا عصبيته ودلاله إلى أن رافقتهما المنية ورجع إلى البيت الذي تعيش فيه أمّه، وهناك كانت المشاحنات بينه وبين أخيه هيثم، وصار يتشاجر معه دائما لكن سرعان ما تعود المياه إلى مجاريها بعد كلّ خصام، عاشت الأسرة لسنوات مع بعضها إلى أن توفي حقي إثر حادث مرور أصابه وهو عائد من عمله، فبقيت حليمة برفقة ولديها اللذين كبرا ومضى الزمن... فكان هيثم ولدا مطيعا لأمّه طموحا، لكنّ إبراهيم كان كثير الشّجار مع بني جنسه، طائش إلى أن كبر وصار طالبا جامعيا وهنا قد انجرف به التيّار ليدخل في دوّامة الجرائم.

كان إبراهيم يسير في الشارع بعد أن أدّى صلاة العشاء جماعة في المسجد فإذ به يجد مجموعة من الشبان، فألقى التحية عليهم وأكمل طريقه لكن أحدهم طلب منه أن يشاركهم أطراف الحديث، فرفض في البداية لكنهم أصروا عليه فبقي معهم، كان الحديث يدور حول جمع الأموال والحياة الرغيدة والربح السريع... زاد فضول إبراهيم ليعرف

كيف يعمل معهم بعد أن طلبوا منه ذلك وقدّموا له عرضا مغريا، غُرّت نفسه ودفعه جشعه لقبول ذلك، وشيئا فشيئا صار عضوا في تلك الجماعة الشريرة ودخل عالما لا يمكنه الخروج منه، ويوما بعد يوم صار مدمنا على المخدرات فتغيرت سلوكياته مع أمّه وأخيه وصار منعزلا عنهما، شحب وجهه وقلت شهيته وضعف جسمه، ولم يعد يشاركهما الطعّام ولا الحديث، صارت حياته بائسة يعيش في الشوارع ويسهر لأوقات متأخرة من الليل... فتغيّرت بشرته وتلوّنت بالأسود، وبعد أشهر علم أخوه هيثم بتعاطيه لهذا السم فحاول نصحه ومساعدته ليخرج من هذه العصابة؛ فهيثم له معرفة تامّة بكلّ ما يفعله أخوه وهذا بحكم عمله لكن دون جدوى، كثرت المصائب على السيدة حليمة ولم تدرك ما تفعله فولدها صار مجرما يسرق ويظلم وينهب ويكسر.. وفي كل مرة يشكو إليها أحد جيرانها ما يفعله ولدها، وما كانت تترك صلاة إلّا دعت الله أن يصلح حاله، وفي ليلة من الليالي الباردة دخل إبراهيم المنزل في وقت متأخر وهو في حالة سكر تامة يتمايل يمينا وشمالا ويهذي بألفاظ غير مفهومة، فوجد أمّه بانتظاره رفقة أخيه.. احترق قلب حليمة على حالة ولدها تلك واشتعلت عينا هيثم غضبا فهو عاجز عن فعل أيّ شيء لينقذ أخاه حتى أبرحه ضربا إلى أن سقط إبراهيم أرضا، ونام دون أن يعي شيئا، وفي الصباح ارتفعت أصوات سيارات الشرطة ليقتحموا منزلهم ويأخذوا إبراهيم من هناك فقد تشابك مع أحد الأشخاص ووجه له ضربة في قلبه مما أدى بحياته إلى المستشفى في حالة حرجة، ووجدت الشرطة كمية من المخدرات مخبّأة في غرفته فكانت نهاية إبراهيم دخوله السجن.

اشتعلت عيون تلك الأمّ حرقة على ولدها الذي أمضى نصف عمره هناك بين جدران سوداء لكنّها تحمّلت وصبرت إلى أن أتى اليوم الذي

سيطلق فيه سراح ولدها إبراهيم، فالأمّ مهما كانت تصرفات أبنائها لا تستطيع أن تكرههم فالولد العاق ابتلاء، فنوح عليه السلام ابتلي بكفر زوجته وعدم تصديقها له وبعدم طاعة ولده والامتثال لأمر الله... والحياة على هذا النحو، كلّ شخص يبتليه الله بشيء ما. مضت أكثر من سبع سنوات على تلك الحال بين شوق أمّه له وبين حسرته على كل ما فعله، لكن كلّ ألم يعلمك درسا صعبا.

أعاد إبراهيم كلّ تصرفاته وحسنها وتاب توبة نصوحا، وصار إماما في السجن يصلي بهم وتفقه في دينه وندم على كل أفعاله، وهناك تلقى العلاج وصار إنسانا طبيعيا اكتوى قلبه وتألم لكلّ ما فعله لوالدته وأخيه ولظلمه لنفسه وهذا كله بسبب الأصحاب، فالصاحب ساحب.

في تلك الزنزانة التي بها نافذة صغيرة يتسلل إليها ضوء الشمس ليلامس وجه إبراهيم الذي قد جمع أغراضه منتظرا اليوم الذي سيكون فيه حرا طليقا بين أحضان أمّه، جالس على سريره بعد أن عانق أصحابه هناك وبدأ يكتب:

«ها أنا سأعيش من جديد وأصلح كلّ زلاتي، سأشم هواء بيتي وآكل من خبز أمّي وأحتضن أخي وأرى ابنته، عدت للحياة من جديد، سأرمي تلك الذكريات خلفي، سأولد من جديد الحمد لله أن مَنَّ الله عليَّ من سعة فضله وأخرجني من ظلماتي إلى النّور بعد أن أبحرت في سن العشرين في قارب محطمّ مع كؤوس الخمر، لم أكن أعلم أين أسير... لقد كان الظلام يحيط بي من كل مكان، وتلك الحبوب تميت قلبي وفكري ببطء.. لقد قتلتني ورمتني في بئر الهلاك في عمر الزهور... نادم على كل أفعالي، وضميري يوجعني، السجن علمني معنى دفء الأسرة، معنى الحرية، الآن أنا مشتاق إلى حديث

أمّي، اشتقت لأن أستمع إلى صوت الأطفال وهم ذاهبون إلى المدرسة صباحا، تعلمت الكثير وأخذت العبر والحكم، استمعت بين جدران هذه الزنزانة إلى قصص النّاس وحرمانهم الأليم؛ فالدنيا حفر وكل حفرة بها بئر عميق لا يراه أحد، كنت أظن أني في عالم النّعيم لكن يا أسفي كنت غارقا في نار الجحيم! كم مرة صرخت رئتاي لأتوقف عن تدخين ذلك الحشيش لكنّي لم أرحم نفسي، عندما دخلت هذا المكان جننت لكنّه كان المكان الذي شاء فيه الله أن أتغيّر وأجدّد حياتي وأسمو بنفسي -الحمد لله-».

لحظات وأتى رجل الحراسة ينادي عليه ليعلمه بوقت خروجه، فرح الجميع له لأنه صار قدوة لكل مراهق.

رأى إبراهيم نور الشّمس وضوء الحياة الذي تسرب إلى رئتيه ليصرخ قائلا: الحمد لله.

يمشي في الشوارع وينظر إلى أشكال وألوان الناس...

وفي بيت زينب أقيمت وليمة على شرف خروج إبراهيم بعد أن قصت حليمة عليهم كلّ شيء وأعلمتهم بوقت خروجه، فجهّزوا كل شيء لاستقباله، كانت فرحة هيثم لا توصف لكن فرحة الأمّ هي الأكبر، ازداد الشوق، وهبّت الرياح لتحرّك الأشجار وكأنها ترحب بقدومه فبعد كلّ عاصفة تشرق الشمس، تناقلت الألسن الخبر بسرعة... ها قد وصل إبراهيم إلى عنوان البيت الذي أرسلته له أمّه، فقد كانت أمّه تحدثه دوما عما يحدث في تلك الرسائل التي ترسل معها عطرها الزاكي... يجري إبراهيم ليضمّ أمّه بسعادة لا توصف، وغرق في صدرها باكيا ولم يرتوِ من حضنها الذي افتقده لأعوام وضمّ أخاه... وكانت الدموع تعبّر عن كل ذاك الحنين.

تناول الجميع طعامه من حلويات ومأكولات مختلفة وتهافتت السيدات إلى البيت ليباركنّ للسيدة حليمة التي كانت أحد ركائز ذاك الحيّ ثم اغتربت، وفي نهاية المطاف رجعت إلى المدينة التي ولدت فيها، وفي المساء اجتمع الجميع ورحّبت زينب بقدوم إبراهيم لكنّه اقترح أن يرجع هو وأمّه إلى بيتهم القديم... أصّرت زينب على بقائهم فبيتهم كبير ويسع الجميع لكنّ حليمة رفضت ذلك وشكرتهم على حسن استضافتهم لها طوال تلك الفترة.

في الغد انتقلت حليمة وابنها بعد أن ساعدهما هيثم في تجهيز بيتهم القديم الذي هجروه لأعوام كثيرة وعادت معهم خليدة وريماس.

كانت الأيام تجري بسرعة البرق، والحزن يعتري قلب تلك المتألمة رهف على فراق من تحب وسرعان ما ألف إبراهيم الحياة رفقة عائلته، والمفاجأة الكبيرة أنّ ريماس صارت تحبه وتنام في حضنه بعض الأحيان وحركت مشاعره، وقد حصل على عمل في أحد المحلات وعادت السعادة إلى ذاك المنزل من جديد بعد معاناة وحرمان وحرقة قلب!

يمكن للإنسان أن يتغيّر حسب إرادته، ولا أحد معصوم من الخطأ، ومن الخطأ نتعلم فلهيب التجّربة يجعلك صلبا قوّيا، والتحسر على ما فات لن يفيدك، سترى أنّ السنوات تمضي وتأخذ منك ما تأخذ فامضِ في الحياة لتصلح ما خربته وأكبر شيء أن تصلح علاقتك بربك، كم هي جميلة تلك المواقف التي تقف عندها فتغربل صحيحها من زائفها، فلولا هذه الأخطاء لما صار إبراهيم شابا صالحا عاقلا؛ فمن كلّ غلط خذ درسا يكون لك ذرعا في الغد يجعلك كالفولاذ واستغل الفرص فالله يحبك وينتظر دوما عودتك وصدق محمود سامي البارودي حين قال:

بـادرِ الـفُرصةَ واحذر فوَتها
فبلوغ العزّ في نيل الفرص
واغـتنم عُـمركَ إبـّانَ الـصِّبا
فهو إن زادَ مـع الّشيبِ نقص

دعت السيدة حليمة كثيرا وتضرعت لربها؛ وها هي ترى ابنها من جديد بين أحضانها بارًّا بها، وصدق قوله عزّ وجل في سورة غافر: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِىٓ اَسْتَجِبْ لَكُمْ» الآية ٦٠، وإنّ كثيرا من النّاس لما يخطئ يلوم نفسه كثيرا، صحيح النّدم من شروط التوبة النصوح لكنّه مضرٌّ إن كثر، فكلّ سيئاتك أحرقها بصلاتك واستغفارك والله واسع المغفرة.

ها هو يوم جديد يطل على رهف، استفاقت من نومها وأدت صلاة الفجر ثمّ راجعت دروسها ونزلت لتجد أمّها في المطبخ تحضِّر لهما الفطور ومحمد جالس ينتظر قدومها، لكن البيت أصبح فارغا من الضجيج الذي اعتادوا عليه والحزن بادٍ عليهما، أوصلت محمد إلى مدرسته.. بينما هي تركب الحافلة إذ بصوت زياد يقاطعها لتلتفت إلى الوراء فوجدته مبتسما على غير عادته وقال:

- رهف هناك خبر لك... لكن تمنحينني قطعة من الحلوى كالتي وجدت أخاك يأكلها!

تعجبت رهف من قوله: وأين وجدته؟

ضحك ثمّ قال: كنت مارًّا من جهة حيِّكم فوجدت وليمة فلم أفوت الفرصة وملأت بطني فقد كاد الجوع أن يفتك بي!

ضحكت رهف من قوله وقالت: بالصحة والهناء، ما الخطب؟

– اتصل بي زين البارحة في وقت متأخر وهو يسلم عليك.

ابتسمت رهف وقالت: آه، الحمد لله، ألم يخبرك متى سيعود؟

– لا.. فقط لدقيقتين لم يكثر الحديث، وقال بأنه سيتصل إن سمحت له الفرصة بذلك، فابتسمي واهدئي فهو بخير.

شكرت رهف زياد على هذا الخبر وراح كلّ في طريقه... داخل المكتبة كانت مريم تنتظر قدوم رهف بعد أن باشرتا بإنجاز بحثهما وكان تقديمهما رائعا من حسن الإلقاء والاستماع إلى الانتقاد ورحابة صدر كبيرة.. وأثنت عليهما الأستاذة ثمّ انصرفتا بعد إنهاء الدوام إلى الحديقة.

– رهف... غدا سيأتي يوسف لخطبتي.

اندهشت رهف من الخبر وفرحت...

رهف: بارك الله لكما يا أختي.. ومن يكون؟

– شكرا يا رهف وأعتذر لأني لم أعلمك، لم تكن هناك فرصة مناسبة.

فردت رهف بعد أن أخبرتها مريم بكلّ ما حدث: فرحت لأجلك كثيرا، الكلّ كان مشغولا في هذه الفترة.

ابتسمت مريم وقالت: على أمل أن أراك عروسة يوما ما.

– إن شاء الله، كل شيء يأتي في الوقت المحدّد... وانصرفت كل منهما إلى البيت.

«الأشياء الجميلة يأتي بها الله في اللحظة المناسبة... هي أقدار فقط انتظر».

حضّرت رهف لصديقتها أنواعا من الحلويات وقد اتصلت بها مريم لتعلمها بحضورها وحضور أمّها.

يوم الخطبة

حضّرت مريم نفسها من جميع الجوانب بمساعدة ابنة خالتها وكانت أمّها مسرورة جدّا، بعد أن سمعت زينب بالخبر فرحت كثيرا واشترت هدية لها واحتضنت ابنتها قائلة:

- ومتى سأرى حوريتي بثوب أبيض؟!

- يوما ما يا أمّاه!

تمتمت رهف في نفسها: يا رب اجعل زين من نصيبي.

اعتاد إبراهيم العيش مع أمّه وقد أحبه الناس، وصار مرشدا في جمعية خيرية يفيد الشباب وينصحهم، وقد فتح متجرا بعد أن ساعدته أمّه في ذلك، بينما هيثم عاد إلى عمله في مدينة سطيف، تاركا زوجته وابنته مع أمّه. حضّرت أمّ يوسف كل ما يتناسب مع هذه الخطبة حسب الأصول وكانت قد ساعدتها جاراتها هناك، فاشترت أفخم الثيّاب والمجوهرات لمريم.. اقتربت ساعة الخطبة وخرجت رهف رفقة محمد لاقتناء هدية صغيرة لصديقتها وقال محمد لأخته:

- أنت مبتهجة اليوم كثيرا، هل تحبين مريم لهذا الحد؟

- نعم يا عزيزي... لأنها بنت طيّبة والعبد الطيب يزرع الله في قلوب النّاس حبه، أتمنى لها أياما هادئة.

- وماذا عنك؟ متى سيأتي فارس الأحلام ويأخذك عنّا؟

ضحكت رهف وقالت: ستجدني في كلّ مرة أمامك أيها العمدة!

وصلا إلى المحل الذي تباع فيه أجمل الزهور، كان دكانا صغيرا

لكنّه جنّة فوق الأرض، اشترت رهف باقة ورود حمراء وبيضاء رائعة وتوجهت إلى بيتها وهناك وجدت خليدة وريماس.

– آه عمتي يبدو أنك اشتقت للبيت.

– كثيرا يا رهف، جئت للاطمئنان عليكم.

شكرت زينب خليدة لزيارتها، رأت العمّة الحلويات فتساءلت:

– ما كلّ هذا؟

– أجابتها رهف وهي فرحة: اليوم خطبة مريم يا عمّتي وسأجهّز نفسي الآن.

– بلغي سلامي لها.. أتمنى لها السعادة.

لبست رهف حجابا سماوي اللون وقد زينت الورود الجميلة خصرها، ولبست الخاتم الذي أهداه لها جدّها يوم نجاحها، لفّت الخمار الأبيض على وجهها بدقة وكانت في أبهى حلة وزينت وجهها بمساحيق المايك آب، لكن كلّ شيء كان بسيطا وغير مزركش، وبينما هي بصدد فتح درج مكتبها لتخرج قارورة العطر، إذ بها تجد رسالة زين هناك مخبأة.

– لقد نسيتها يا إلهي سأرى ما تحتويه!

فتحت الرسالة وقد انفتح قلبها معها، فوجدت ساعة زهرية اللون مرفوقة برسالة، شمّت تلك الساعة ووضعتها على يدها فصارت أجمل وقالت:

– ليتك الآن هنا لأرى النّور الذي في عينيك، متى ستعود؟ فغيابك يؤلمني، لعلّ نار الشّوق تخمد، ها هي مريم سترحل عنّي وسأبقى

وحيدة!

لم تقرأ رهف الرسالة خشية أن تنهمر دموعها في هذا اليوم الجميل وتركتها لحين عودتها من الحفل.. نزلت إلى غرفة الجلوس وحملت الورود والحلويات، وأعلمتها أمّها أنها لن تذهب لأنها متعبة قليلا ومعها خليدة لا تستطيع أن تتركها وطلبت منها أن توصل لها تهانيها.

دقائق وقد وصلت إلى بيت مريم الذي ليس ببعيد عن بيتهم، رحّبت بها أمّ مريم وأخواتها..

- ها قد جاءت توأم روحي، أين هي أمّك؟

- تعتذر منكم، هي متعبة قليلا وتركت عمّتي عندها... تهنئك بهذا اليوم.

- شكرا.. تفضلي بالجلوس.

وأعطت رهف الحلويات والورود لمريم قائلة: أتمنى أن تنال إعجابك.

- كل ما يلامس يديك يبقى جميلا يا رهف... وتحدثتا قليلا إلى أن طرق الباب، وصل الضيوف حاملين معهم الهدايا والورود، رحّب والد مريم بهم وجلس الجميع في غرفة الجلوس يتبادلون أطراف الحديث إلى أن طلب الأب من الأمّ أن تأتي بالحلويات والمشروبات، قامت الأمّ وراحت إلى غرفة مريم:

- رهف هيّا خذي مريم إلى المطبخ لتحمل الحلويات وتأخذها لهم.

كانت مريم متوترة قليلا...

- لا تتوتري.. كوني على طبيعتك وإلا سيسقط منك كل شيء!

ساعدت رهف مريم في المطبخ وحملت صينية الحلويات، ودخلت إلى غرفة الضيوف بمنظر فاتن سحرت أعين الحاضرين بابتسامتها المشرقة بثوب ورديّ تزينه رسمة فراشات ملونة، وشعر أسود يتدلى على ظهرها، قدمت لهم الحلوى وجلست، أعجبت والدة يوسف بها كثيرا وقالت:

– بسم الله ما شاء الله... فليحفظك الله يا عروستنا.

ثمّ قال والد يوسف: لقد أحسن ولدي الاختيار، نتمنى لكما السعادة.

كانت عينا يوسف تسترق النّظر لمريم بين فينة وأخرى، إلى أن طلب الأب منهما أن يذهبا إلى الغرفة المقابلة ويتحدّثا قليلا، بقيت مريم ويوسف في الغرفة ونظرات عيونهما مملوءة بالفرحة والحب ليكسر ذاك الصمت يوسف:

– كم تبدين جميلة يا مريم!

لم تستطع أن ترفع رأسها من شدة الخجل...

– الحمد لله أني رأيت هذا اليوم فليحفظك الله يا حبيبي.

تلاقت العيون ودقّت القلوب واحمّرت وجنتا مريم وطبع يوسف قبلة على جبينها احتراما لها قائلا:

– أنت نعمة من الله، بسببك تغيّر مجرى سفينتي وتعلمت كلّ شيء منك، كنت في ضلال لكنّك وجّهت قلبي وكنت قِبلة لي... جمعني القدر بك، لن أجعل عينيك تحزنان وستكونين حوريتي المدّللة وسأسعى دوما لإسعادك... أحبك!

أومأت مريم برأسها واشتعلت نار في قلبها.. نار العشق، وكانت الفرحة تغمرها. اتفقت العائلتان وانصرفوا إلى بيتهم.

سأعود

ألقت نظرة على الخطّ المكتوب بإتقان وشرعت في القراءة..

«صحيح أعلم مدى الخطأ الذي ارتكبته، أحزنتك هذه المرة لكنّي لا أحب الوداع، خشيت أن يصيبك مكروه فغادرت بصمت، لست مصدقا متى وجدتك وبعد أيام فارقتك، يؤلمني هذا كثيرا، زرت الحديقة وجلست على الكرسيّ الذي كنت تجلسين عليه وهناك حملت بقايا رائحتك معي، شممت الورود التي كنت تبتسمين معها، مررت بكلّ الطرق التي كنّا نسير فيها معا وفي كلّ زقاق هناك ضجيجك بقي عالقا في ذاكرتي، رهف حبيبتي أحبك، نبض قلبي ومأمني، لا أنكر سببت لك التعب كثيرا لكنّك تحملت مزاجيتي، أنت عالمي وملاكي الصغير، طفلتي أنت وزجاجة تفاؤلي في هذا العالم، بعد رجوعي لن نفترق مرة أخرى ستكونين أميرة لبيتي وأمًّا لأولادي فأنت الماء الذي أشربه وأنا ظمآن، كوني قوية في غيابي وإياك أن تضعفي، البعد لن ينقص أبدا من حبي لك، لا نلتقي ولا نتكلم لكن تجمعنا ذكريات مع بعض، أنا مشتاق إليك كثيرا، اصنعي حوارا بيننا في الخيال، وكلمي الله في دعائك دوما كما كنت تقولين لي لن يكون هناك جفاء بيننا، فالوصال سيأتي ليجمع قلوبنا، أثبتي لي اجتهادك ولا تتراجعي عن مستواك، ارتدي تلك الساعة كي أكون معك دوما، وأعلم أني بقلبك» وانتهت الرسالة بإمضاء زين.

ارتجفت شفتا رهف ولامست تلك الكلمات ذاك القلب الصغير، دمع القلب وذاب قبل أن تدمع تلك الشموع، وما أشد الألم دون صرخات! زفرت زفرة طويلة وقالت:

– حان وقت البوح فاستقبل رسالتي، لن تصل إليك حروفي أعلم، لكن إحساسك يكفي لكلّ شيء «الحنين إليك يمزقني ويجعلني تائهة، إنك محفور في زاوية من يسار صدري، تسير دوما معي، عيناي تشتاق لرؤيتك فهَلّا أتيت؟! أحنّ إلى لطافتك وجنونك، قلبي يصرخ ويريد ضمّك، أنا أبحث دوما عن طيفك كي يواسيني، أيها الغائب إني أراك في منامي، قد أحببتك وبكلّ حواس الحب قد أحببتك».

نامت على كرسيّ مكتبها دون أن تشعر.. لم يستطع زين أن ينم، بقي يتقلب في فراشه وكأنه أحس بقلب رهف، فقام وتوضأ وقابل ربه بكل انكسار؛ ففي الصباح يكون كالجبل ثابتا وشامخا لا يشتكي لأحد وعند حلول الظلام تتراكم الآلام على قلبه فيكون هشّا بقلب رقيق يتدفق شعور الشّوق من قلبه كما يتدفق الماء من الجدول، رفع يديه إلى السماء:

«يا رب لا تريني سوءا في رهف... قلبي بين يديك يا رب تقلبه كيفما تشاء، أنت مَن رزقتني حبها فاجعل عيني تقرّ بها»، وأنهى دعاءه وقد أحس بذاك الحمل الثقيل قد خفّ.

طبيعيّ أن تدعو الله وتوقن بسماعه لدعائك، يراك منهزما فيشرح قلبك، إنه السّميع العليم، حتى ذاك الحوار الذي بينك وبين نفسك يعلمه، إنه ربّي وربك وربّ الأنبياء خالق الأكوان وقاضي الحاجات، فمن يرزق الطير وهو في عشّه أتراه يتركك وحيدا؟! يجيب دعوة ويمحو حزنا ويضيء دربا ويلمُّ شملا، رحمته وسعت كلّ شيء فتذكر ذلك وأحسن الظنّ به.. الذي يحبك لن يملّ من الدعاء لك ستبقى شيئا مقدّسا له.

«إني أعشق وبشدّة سكون الليل، ماهر بتحريك ما يختلج في النّفس، ليل أسود ونسيم هادئ يتصاعد فيه الضجيج، ضجيج العاشقين وأنين

الموجوعين ودعاء القانتين. أيها الليل، إنك ليل الذكريات».

بقي زين يحدّق في النّجوم طوال تلك الليلة وخيّل إليه أنّ رهف بجانبه تنظر معه فبقي صامتا، كانت ليلة روحية بين شخصين بينهما مسافات، لكن قلبيهما قريبين جدّا أبيَا أن يبتعدا وفضّلا أن يحترقا معا!

أسدلت الشّمس أشعتها على وجه رهف ولامست وجنتيها الورديتين.. استيقظت لتجد نفسها فوق الكرسيّ، فتحت النافذة وتأملت السماء وتنفست هواء طازجا مفعما بروائح الورود وعطر النّعناع الذي يغمر المنزل؛ تناولت فطورها وجهّزت نفسها، قبّلت ريماس التي ما زالت نائمة وفي طريقها مرت على بيت مريم لتجدها هناك تنتظرها فألقت عليها السلام..

– حيّاك الله، صباح الياسمين لأجمل ياسمينة.

ضحكت مريم وردّت: يبدو أنك ستغرقينني اليوم في بحر الغزل!

ضحكت الصديقتان ثمّ قالت مريم: رهف تبدين متعبة خيرا؟

– لقد نمت على الكرسيّ وكلّ عظامي أشعر بأنهّا مفتتة، لقد أرسل لي زين رسالة ومن شدّة أعمالي الكثيرة نسيتها وأمس فقط قرأتها.

– إن شاء الله يعود قريبا، وتنطفئ تلك النّار! لا تسرحي بخيالك كثيرا وتصمتي، نحتاج لرؤيتك دوما مبتسمة وإلّا سيعاقبنا الجندي.

قاطعهما زياد الذي كان بعينين شبه نائمتين ومظهر مضحك، فعلقّت مريم عليه كثيرا ثمّ قال: ما بال العروس لم تحضر لي الحلوى؟!

مريم: إنك صحفي من الدرجة الأولى لا تفوت أمرا!

وأمضيا الطريق كله يتحدثون عن الدراسة، كان زياد بمثابة أخ لهما واتجها للجامعة ليكملا المذكرة التي لم يبق الكثير على تسليمها.

جرعة ألم

لا يخلو أيّ ناجح من تعثرات ومن أناس يثبّطون عزيمته، لكنّ الواثق من نفسه يجعل كلامهم تحت رجله ويمضي.. بجانب منزل رهف هناك جارة تعيش مع بناتها، بغيضة، وحسودة، لا صلاة لها ولا زكاة وشغلها الشاغل مراقبة النّاس والحديث عن أعراضهم؛ وفي أيام الطفولة كانت رهف تحب بنتيها كثيرا وتلعب معهما وهما أيضا تبادلانها الودّ، لكن سرعان ما قلبت الموازين عندما صارت رهف بنتا كبيرة وجميلة، مجتهدة ومميّزة.. وكانت تلك الجارة تلبس النّاس كلاما ليس فيهم فنبذها الجيران وخاصّة زينب التي ابتعدت عنها؛ فعندما كان زوجها على قيد الحياة كان يضربها كي لا تتشاجر مع النّاس، لكن معدنها وسخ وتفتعل المشاكل دوما، وعندما توفي صارت تحرّض بنتيها على ظلم رهف وبنات الحيّ، وكانت كثيرا ما تسمع رهف كلاما جارحا وتنشر بين النّاس مواقف لا تمثل رهف ولحسن الحظّ أنّ بيت رهف كان معروفا هناك فجدُّها من خير ما أنجب ذاك المكان، والذي معدنه من ذهب لا يصدأ أبدا، تحمّلت زينب الكثير وعانت الويلات، لكنّها في كلّ مرة تسلمّ أمرها لربهّا ولم تؤذ أحدا قط، فكن مظلوما ولا تكن ظالما وكانت تتذكر تحمّل الرسول صلى الله عليه وسلم لشتى أنواع الأذى فهو الذي صبر على كتم غيظه من جاره الذي كان يرمي الأوساخ أمام منزله.. فليس من الواجب أن نرجع الإساءة بل أن نبدّلها بحسنة ونحتسب الأجر على الله عز وجل.

بينما زينب في حديقة بيتها تسقي الورود وجدت بجانبها جارتها، فاندهشت من قدومها بعد كلّ تلك السّنوات..

– مرحبا يا زينب، أعتذر جئت من دون أن أرسل إليك خبرا.

- وعليكم السلام، تفضلي.

دخلت الاثنتان إلى البيت وتحدثتا، وكان وجه تلك الجارة كالملاك لكن ما يخفيه قلبها أسوأ بكثير.

- كيف حال رهف ومحمد؟

- بخير الحمد لله، وأنت كيف حال بنتيك؟

- بخير.. لقد أتيت لأنّ ضميري أنّبني كثيرا وكبرت في العمر، أعتذر عن كل ما سببته لك في الماضي، أرجو أن تسامحيني ونبدأ صفحة جديدة.

سرّت زينب بذلك وصدّقت كلّ ما قالته لها لكن هيهات.. فوراء كلّ إنسان نعرفه يقبع شخص لا نعرفه!

- لا عليك ليكن خيرا، ابقي هنا حتى أحضر لك شيئا تشربينه.

ذهبت زينب إلى المطبخ لتحضّر قهوة وبسكويتا لجارتها؛ بينما تلك اللئيمة أخرجت من جيبها قارورة بها قطرات من الماء وراحت ترش باب غرفة رهف دون أن تراها زينب، بخطوات هادئة كي لا تنتبه لها وأخذت نفسا عميقا، ورجعت إلى مكانها وجلست، لحظات ودخلت زينب حاملة صينية عصير البرتقال، وبعض الحلويات لجارتها سهام ظنّا منها أنها ندمت فعلا، لكن وا أسفاه! فالمظاهر خداعة في كثير من الأحيان ولسوء الحظّ أننا لا نعلم نوايا النّاس اتجاهنا، لكنّ القلب الواثق والأمين والصّادق لا يتركه الله بل يحميه من شرّ خلقه ويكشف له حقائق البشر، فالله هو خير الحافظين.

تبادلت أطراف الحديث مع زينب، ثمّ طلبت منها مجيء رهف في المساء لبيتهم الذي يقع خلفهم لتحضر حفلة ميلاد إحدى ابنتيها،

فشكرت زينب سهام وغادرت البيت، سرّت زينب بعودة المياه إلى مجاريها، لكن المصيبة قادمة وهي لا تدري.

لم تكن السيدة زينب تعلم بذهاب سهام إلى العرّافين والمشعوذين، فمنذ وفاة زوجها صارت نار الحقد تشتعل في داخلها على كل شخص يملك أفضل مما تملكه... فصارت كحبة تفاح تنهشها الطفيليات من الداخل وتجعلها وسخة غير صالحة للأكل ونقلت ذاك الفيروس لبناتها.

فالحسد أول خطيئة ارتكبها بنو آدم، في المساء عاد محمد باكرا إلى منزله فراح يشاهد برامج الكرتون ولحقته رهف التي كانت في حالة متعبة بعد أن أدّت صلاة العصر وجلست تقرأ وردا من القرآن الكريم إلى أن قدمت أمّها إليها وأخبرتها بكلّ شيء، فتعجبت رهف من ذلك وتذكرت الماضي الذي عاشته.. ثمّ كتمت غيظها، وتوجهت إلى منزل جارتهم وهناك كانت الوجوه الزائفة والنّوايا الخبيثة تظهر بمظهر ملائكي بريء يتخلله النّدم، رحّبوا بها وقد وجدت بنات هناك فتحدثن مع بعض وضحكن كثيرا، وفي المطبخ كانت إحدى بنات سهام تحضّر العصائر لتقديمها لهن، فاختارت كأس رهف ووضعت فيه مسحوقا قد جاءت به أمّها من عند أحد المشعوذين فشرب الجميع وشربت معهم تلك الضحية. لم تكن رهف تعلم أنّ ذاك الكأس سيكون أول بدايات معاناتها واعتذرت البنتان لرهف أمام الحضور وقبلت رهف ذلك بصدر رحب. غادرت البيت وحكت ما حدث لأمّها وهي غير مصدقة ما يحدث.

في الليل غضب محمد لمغادرة عمّته المنزل وتعوده على ريماس ومداعبتها، ثم طمأنته أمّه بأن تأخذه قريبا إلى بيتها.

تمر الأيام كالشهور على زين فالحنين يجتاح قلبه لأهله، وموعد تخرج رهف قد اقترب وهو ليس بجانبها في أجمل أيام مسيرتها الدراسية، لكنّه لم يكن وحيدا فسرعان ما وجد صديقا يؤنسه ويفضفض له وهو فؤاد؛ فكان يبعث في روحه الأمل من جديد في كل مرة يضعف فيها، فالشعور بالغربة قاسٍ بذوق مرير! فلا يوجد شيء أجمل من أن تبقى بين أحضان من تحبهم. يموت الصمت وتموت الكلمات لكنّ الاشتياق يزداد ولا يموت، ليت كل الذكريات تمحى لكنّها في كل ليل تنبض، تبقى جرعات الألم تنهش وتلاحق كل مشتاق، صورة أو موقف يجعلك تتذكر كل شيء دفعة واحدة، كم هو غريب شعور الغربة، نار تأكل الجسد!

نفس هادئة صابرة، شارد ذلك الرجل الذي ينظر إلى الحائط الذي يجمع صورة ولده وابنته وزوجته المتوفاة، شاء القدر وافترق عن فلذة كبده... يتذكر تصرفاته وجنونه غضبه وحبه وسلامه للنّاس ويحدث نفسه قائلا:

- يا ترى هل أنت جائع يا زين؟! هل أنت بخير؟ ماذا تفعل؟ لقد اشتقت إليك...

لحظة انكسار مؤلمة على ذاك الأب في كل ليلة، سمعت أريج كلام أبيها فراحت إليه واحتضنه وقالت:

- بالرغم من غضبك وانتقاداتك له دوما، إلّا أنني أعلم أنكّ تشتاق إلي،ه البيت من دونه مظلم، لقد اشتقت إليه يا أبي!

قبَّل الأب ابنته وراح يرسل إليها كلمات تريح قلبها: لا تقلقي، أخوك شجاع وسيعود.

«إنه الأب الذي تراه مستعدا دوما ليحمل كلّ أثقالك في سبيل أن

تكون سعيدا؛ ذاك هو السند والضّياء الموجود في كل بيت، لا تستطيع أن تتخيّل ماذا يفعل حضن الأب لابنته، يرمّمها ويعيد لها كلّ بهجتها، لا يمكنك أن تعرف ماذا يفعله حضن بروح! وكيف تكون الكلمة الطيّبة كمرهم عسل شافٍ على جرح ينزف».

بالرغم من أنّ أريج فقدت أمّها، إلّا أنّ الله عوّضها بأبٍ كان لها الأب والأم، ولم يبخل عليها بشيء.

في الغد غادرت سهام وبناتها المدينة إلى مدينة أخرى هربا وخوفا مما فعلته برهف. مضى شهر كامل على رهف ومريم اللتان كانتا تدرسان بجدّ وبين حين وآخر تذهبان للتسّوق من أجل أغراض مريم لعرسها؛ وفي أحد المرات بينما هما عائدتان من السوق إذ برهف تسقط أرضا وأغمي عليها، فأسرعت مريم لتنقذ صديقتها، وأخرجت من حقيبتها قارورة ماء وبدأت ترش عليها قطرات منه لعلها تستفيق لكن دون جدوى، فراحت تصرخ لتطلب النّجدة فالتفّ النّاس حولها واتصلوا بسيارة الإسعاف التي حملتها إلى أقرب مستشفى، من جهة أخرى فإنّ زينب أحست بقبضة في صدرها فاتصلت بابنتها، فلم تستطع الوصول إليها لأنّ هاتفها مغلق فاتصّلت بمريم لكنّها لم ترد عليها... فحصت الطبيبة رهف ووصفت لها فيتامينات لتستعيد طاقتها وبقيت هناك نائمة على السرير؛ بينما مريم ترتجف خوفا وتراقبها من النافذة ونزلت دمعة من عينيها خوفا على حالة رفيقتها. رنّ هاتف مريم ولاحظت مكالمات من زينب فاتصلت بها وأخبرتها بأنّ رهف معها في المنزل قائلة:

– ستبقى رهف معي هذه الليلة يا خالة، وبعد صلاة العشاء سآتي بها مع أبي.

- حسنا يا ابنتي، وفقكما الله.

اضطرّت مريم أن تخفي الحقيقة على زينب كي لا تتألم... أعلمت مريم أهلها وأتى أبوها وأمّها للمستشفى للاطمئنان على حالة رهف.

فتحت رهف عينيها لتجد أهل مريم معها، دقائق ودخلت الطبيبة إلى الغرفة:

- إنكّ مرهقة كثيرا، استريحي هذه الأيام، وصفت لك بعض الأدوية، تناوليها... وسمحت لها بالخروج على ألا تتعب نفسها.

«ملاك أوجعته الحياة، حمل الهموم التي لا تتناسب مع عمره، قلب انطفأ وروح لازالت تقاوم عواصف الحياة صبرا! أحيانا الكتمان يضرّ القلب كثيرا، تمضي الأيام منها ما هو مرّ ومنها ما هو حلو ولا يخلو أحد من ألم... الكلّ يعاني ضنك الحياة، جفّت الأقلام وتعثرت الكلمات، الحزن أهلك الأفئدة لكن هيهات! إنهّا الحياة مضطرّ لأن تتأقلم مع أمواجها وتمضي بنا السفن إلى حيث لا ندري».

غادرت رهف مع أهل مريم المستشفى وأدّت صلاتها وتناولت وجبة العشاء معهم، ثمّ أخذتها مريم وأبوها إلى بيتها، لم يرتح قلب زينب فظلت تسأل رهف لمرات عن حالتها لكنّها بكل ثبات وصمود تخبرها أنهّا بخير.

- رهف هل حدث شيء؟

توترت رهف قليلا ثم استرسلت في الكلام ضاحكة والألم يعصر قلبها، ماذا لو علمت أمّها بما حدث لها لماتت من خوفها عليها: لقد أمضيت يوما جميلا رفقة أهل مريم... إنهّم طيّبون ومتواضعون.

- الحمد لله، فليحفظهم الله.

عانقت زينب رهف بقوّة وكأنّها تحس بأنها تتألم وقالت: لا أتحمّل فقدانك، أنت نور عيني!

– لا تقلقي يا أمّي، يوما ما سأتزوج وستنامين بهدوء.

قاطعهما محمد وهو محتضن أمّه وكأنه غار من رهف: سأكون خالا وسيما وحنونا، أليس كذلك يا أمّي؟

– نعم يا صغيري ستكون لنا كتكوتة كرياس تضيء لنا البيت.

وبهذه الضحكات استطاعت رهف أن تهدّئ بال أمّها وأخفت ألمها!

«ما أجمل أن تجد روحا تقف معك في لحظات انهزامك؛ تحاول أن تنيرك دوما بابتسامة لطيفة، المواقف دوما تشرح كل شيء لنا وتجعلنا نفرّق بين الزميل والصديق، فإياك أن تخذل أحدا همّه أن تكون سعيدا! إياك أن تكسره».

مضت الأيام ولم تعد رهف تحتمل وجودها في المنزل، وصارت دوما في مناوشات مع أمّها على الصغيرة والكبيرة وتقول لأمّها بعد كل ذاك الشّجار بأنها لا تعلم ما بها، نحُلَ جسمها بشّدة وأصبحت كثيرا ما تستفرغ دون سبب وبكاء لا إرادي يلازمها، حاولت أمّها أن تقنعها بالذّهاب إلى طبيب نفسيّ، واحتملت أنّ هذه الحال لازمتها بسبب اقتراب تسليم مذكرتها، فربّما كانت خائفة، فالتوتر يفعل بالإنسان الكثير.. لكنها كانت بخير ولا وجود لأيّ شيء؛ ثمّ ذهبت بها برفقة عمّتها للقيام بالتحاليل والأشعة عند أكثر من مركز طبيّ، لكن كلّ شيء طبيعي ولا تشتكي من شيء، بقيت زينب تراقب ابنتها، وقد انتقلت خليدة لمدة عندهم لتبقى بجانبها... لم تعد قادرة على دراستها، ولا أن تشارك أحدا الحديث، منعزلة تماما، والأسوأ تغيبها عن الجامعة، صارت علاقة رهف بمريم وزياد سيئة ولم تعد ترغب بالحديث معهما،

تألمت مريم لذلك لكن زياد أخبرها بأن لا تنفر منها وتتحملها إلى أن يصبح كلّ شيء كما كان.

في الأيام الأخيرة من شهر أفريل انتبه رضوان لتغيّب رهف المطوَّل فحمل نفسه واتجه إلى بيتها.

– السلام عليكم، هل أستطيع الدخول؟ لقد قلقت على رهف، هل هي في البيت؟

كان الألم والحسرة يخيّمان على ملامح زينب وقالت: تفضل يا أستاذ، هي في غرفتها.

جلسا في غرفة الضيوف، وفجأة دخل هيثم إلى هناك بعدما أعلمته خليدة بما يحدث مع رهف وتحاور الجميع حول حالتها تلك، ثمّ كلمت زينب الأستاذ قائلة: إنّ بعض الظنّ إثم... لكن يا أستاذ ابنتي تغيّر حالها منذ ذهابها إلى ذاك الحفل.

تعجب رضوان وقال: عن أيّ حفل تتحدثين يا خالة؟

– منذ أكثر من ثلاثة أشهر قدمت لبيتي جارتي سهام واعتذرت منّي ومن رهف على كلّ ما فعلته في الماضي، وفي المساء ذهبت رهف إلى بيتهم لتشاركهم حفل ميلاد إحدى ابنتيها.

هيثم: هل تقصدين يا خالتي سهام؟

– نعم يا هيثم، تلك هي!

توتر هيثم وصمت ولم يبدِ أيّ شيء.

رضوان: ما دامت كل الفحوص طبيعية فهذا يشير إلى سلامة جسدها، أقترح أن نأخذها إلى الرقية الشرعية فربّما أصابتها عين حاسدة

أو تأذت، فلعلمكم جميعا أنّ العين شيء صعب وتدخل الإنسان القبر.

زينب: أنا موافقة، المهم أن تشفى ابنتي.

رضوان: لديّ صديق من خيرة الرقاة سآتي به إليكم في المساء، فاستعدوا.

رافق هيثم رضوان إلى الخارج، ثمّ أخبره هيثم بما يعلمه عن تلك المرأة بأنها سيئة ودوما ما تذهب إلى المشعوذين وتلك شهادة النّاس عليها جميعا.

صعدت زينب لتعلم ابنتها بأن تستعد، فلم تتفوه بكلمة واحدة وبقيت في صمتها... لحظات ودقتّ مريم الباب لتستقبلها خليدة وحكت لها ما جرى، ثمّ طلبت خليدة من مريم أن تأخذ محمد عندهم كي لا يتأثر بحالة أخته ففعلت ذلك وغادرت المنزل، لكن قلبها بقي هناك!

بقي هيثم وزوجته وزينب في غرفة الجلوس ينتظرون قدوم الأستاذ ويا له من انتظار يحرق الأعصاب.

التقى رضوان بصديقه زكرياء المعروف في تلك المدينة، وقصّ عليه حالة رهف وتوجها إلى بيتها. استقبل هيثم الرجلين وطلب من رهف أن تجهّز نفسها، توضأت وارتدت حجابا أسودا طويلا وغطت رأسها بخمار أبيض ودخلت عندهم، استلقت على السرير وبجانبها أمّها وخليدة وهيثم والأستاذ، باشر الراقي في قراءة ما تيسر من آيات القرآن، وإذا برهف تصرخ وتبكي وتردّد كلمة «حسبي الله ونعم الوكيل» فقلبها كان دوما معلقا بالله عزّ وجل والدموع منهمرة على وجنتيها وبين حين وآخر يقدّم لها زكرياء الماء لتشرب... مضت ساعة كاملة على ذلك وزينب تتألم لرؤية ابنتها، أمّا خليدة فحاولت أن تكون

ثابتة ولا تنهار، أكمل زكرياء عمله ثم سأل رهف عما شعرت به.

- أشعر بشيء في بطني كأنه كومة من أشياء كثيرة، ورأيت بنات يضعن لي شيئا في كأس لم أستطع أن أتعرف عليهما.

- وهل تعرفين البنات؟

- لا، لم أستطع أن أعرفهنّ، كان كل شيء مظلما.

- حسنا، كيف تشعرين الآن؟

- بتحسن، الحمد لله.

ثم انصرفت رهف واستحمّت لتستعيد نشاطها، بينما زكرياء يشرح لأهلها حالتها..

- إنهّا بنت قوية ومؤمنة كثيرا فليحفظها الله، الأعراض التي حدثت لها تشير لوجود عمل سحر في أكلها، لا تقلقوا على حالتها ستتحسن بعد أقل من جلستين بإذن الله، الحمد لله أنكم قد أسرعتم للعلاج، ستكون بعد أسبوع جلسة أخرى والشّفاء بيد الله.

شكر هيثم زكرياء ورضوان وانصرفوا.. بقيت زينب تبكي ولم تحتمل عيناها أن تحبس تلك الدموع إلى أن هدّأتها خليدة.

في المساء نزلت رهف من غرفتها وشاركت أهلها الطعام وفرحت بذلك كثيرا.

بعد العسر يسر

ها هي رهف الفتاة الطيّبة ذات العشرين ربيعا تقع في دوّامة أخرى يستوجب عليها الصبر، وقعت ضحية لقلوب قاسية، مشركة، الغيرة يا سادة واد مهلك، أرادوا أن يجعلوا من حياتها حطاما، عانت أشهرا ولكن في زمننا الحالي هناك أشخاص يعانون لأعوام طويلة!

حقّا بات بعض النّاس بلا إنسانيّة، حسد حوّلهم إلى أقدام تذهب إلى تلك الأماكن، وقد أعمى الشّيطان أعينهم وقفل على قلوبهم لتأتي بطلاسم السحر، دمرت بيوت كثيرة وفتيات قد فاتهنّ قطار الزوّاج، تفرقّت أُسَرٌ ومرض الكثير، لو كان كلّ شخص يعبد رّبه حقّ عبادته وراضٍ ومقتنع بما أعطاه الله لعشنا في سلام، يا من عقدت ونفثت، يا من سرقت آثار النّاس ورششت ويلك! ويلك من غضب الله! فلتعلم أنّ السحر هو الشرك الأكبر بالله، قد يغفر الله لك إن كذبت أو اغتبت لكن أن تشرك به فمصيرك نار جهنّم خالدا فيها؛ السحر أمر صعب يجعلك تبدو باهتا ترى كل شيء بظلام، تفقد نشاطك، تترك صلاتك، وربّما يجعلك تقبل على قتل نفسك دون علم منك، لذا فالحلّ هو الرقية الشرعية بين حين وآخر حتى لو لم تكن تعاني من مرض فعالج نفسك؛ وقد عرف ابن قدامة السحر على أنه: عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرّق بين المرء وزوجه ويأخذ أحد الزّوجين عن صاحبه. فالساحر شخص كافر ويبقى السحر من أعظم الكبائر التي حذّر منها الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي صحيح البخاري قال: «اجتنبوا السّبع الموبقات، قالوا يا رسول الله وما هنّ؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النّفس التي حرم الله إلّا بالحقّ وأكل الرّبا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزّحف وقذف المحصنات المؤمنات

الغافلات» متفق عليه.

وكثير من الناس لا يفرّقون بين المشعوذ والراقي؛ فمن صفات المشعوذ أنه يطلب منك أن تأتي بأثر لأيّ شخص ويذكّرك باسم أمّك وعائلتك ويعطيك أوراقا وكتبا لتضعها في البيت وتسمى «حجاب».

أمّا الراقي فمن شروطه أن يكون مسلما صالحا، كما يستطيع أيّ مريض أن يلجأ إلى الحجامة لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ خير ما تداويتم به الحجامة»، وعلى المريض أن يحصّن نفسه بالأذكار ويكثر تقربه من ربه، فالعين حقّ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو أخيه مما يحب فليبرك عليه فإنّ العين حق»، نحن كثيرا ما نعجب ببيت، أو ملامح شخص فنحدّق فيه، لكنّنا لا نعلم أننا نؤلمه فنصيحتي لك أن تجعل «ما شاء الله» كالماء الذي تشربه في كل وقت. ما دمت في الدنيا فإنك في بلاء دوما وعلى قدر صبرك يأتي جبرك واعلم أنّ الله يعوضك عن كلّ أنين يئنّ به جسدك، فاحتسب واستبشر خيرا؛ فالله يبتلي عباده الصالحين دوما فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيّ النّاس أشدّ بلاء؟ قال: الأنبياء ثمّ الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من النّاس، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفّف عنه» رواه ابن ماجه.

وكإشارة أنبّه عليها عن فضل سورة البقرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر فإنّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» صحيح مسلم، فاجعل في بيتك جنّة لا مقبرة، ورتل القرآن دوما لأنه شفاء لما في الصدور، واجعل قراءة سورة البقرة عادة يوميّة وضرورية ليومك

كحاجتك للأكل، أعلم أنك تستطيع ذلك، فافعلها ولا تتكاسل!

هكذا تعرضت رهف لصدمة جعلتها قوية، تراجعت في مستواها الدراسي لكنّها سرعان ما عادت لسكة النجاحات من جديد بعد صبر وإيمان وثقة في نفسها، وبعد تلك الجلسات تحسنت ومن ذاك المرض تعلمت درسا آخر في الصبر، وبدعوات أمّها التي أمطرتها في كلّ صلاة وقيام ومساندة مريم لها عادت لتحيا حياتها من جديد، أمّا زين فلم يعلم ما قد جرى لرهف.

«تظلّ الحياة تعلمنا الدروس فعليك دوما أن تكون حامدا شاكرا لله في كل حين، فالأنبياء صبروا ونالوا الجزاء بأن كانوا من أصحاب الجنة».

غيمة سوداء مرت على ذاك القلب الصغير، فالزمن دوّار ولا يظلم ربك أحدا، فربما إخلاصك وطيبتك وكثرة صدقاتك هي المنجي والواقي لك في كل عاصفة.

غزى الخبر المدينة بموت سهام وبناتها في حادث مرور أليم أدى بحياتهم إلى الهلاك، وما أشدّ عذاب من يرحل عن الدنيا تاركا وراءه جبالا من الذنوب، لكنّ الله عادل في حكمه ولا اعتراض على حكمه.

في مساء يوم الخميس عادت رهف لتكتب مذكراتها بين تلك الأوراق التي هجرتها:

«عيون كالغزال وغرفة هادئة، هدوء الليل وبريق النّجوم... في متاهة الحياة أسير بين تظاهر بالثبات وصراع مع قلبي وعقلي، أيام صعبة تجاوزتها ومع دهاليز نفسي أمضي تائهة لكن خيوط رحمة الله تقودني إلى الله، فيغسل القرآن قلبي من كلّ وجع، برفقة ذاك الحبر الأسود أخطّ أحلامي وبنظرة إلى صورة أبي أكتم آلامي، شهقات روحي

تتعالى في كلّ ليل فأسجد لله منكسرة فتزال كلّ الأشواك من طريقي سبحان لطفك يا ربي، ترقص روحي مرة أخرى على أوتار الأمل، ومن ينبوع الطبيعة أستقي السعادة لروحي، بنظرة لتلك الأشجار يتجدّد الهواء لرئتيّ المرهقتين لأنهض بجسمي المتثاقل وبقلبي الجريح لأواجه هذا العالم بيد من حديد وبابتسامة النّصر لطائر يحلق في السماء تجاوز رصاصات تلك البندقية».

نامت رهف نوما عميقا بعد أن باحت للورق بما تشعر به فهو الرفيق الدائم الذي لن يخونها.

بزغ الفجر ليعلن عن بداية يوم جديد؛ وها هي أشعة الشمس تنبعث إلى الغرفة لتجد فتاة بحجاب أزرق وعينين كحبات البنّ براقة، حاملة كتاب الله وترتل آياته لتستفيق روحها، وبعد أن أنهت حضّرت مائدة الفطور وفتحت النوافذ ليتسلل الهواء النّقي لأرجاء البيت الذي عادت إليه بسمته من جديد. نهضت زينب وصداع في رأسها يرنّ من شدّة تفكيرها لتندهش برؤية فراشتها تطير هنا وهناك بكل نشاط وحيوية، وأيقظت محمد ليساعدها فحضّرا مائدة لعائلتهما الصغيرة وكان فطورا لذيذا.

كانت مريم تنتظر صديقتها في موقف الحافلات بكلّ شغف، فقد أخبرتها البارحة أنها ستعود لمقاعد الدراسة... احتضنت صديقتها وفرحت لرؤيتها كما كانت واتجهتا إلى المكتبة لتكملا ما بدأتاه، ها هي رهف تبحر في عالم مليء بالكلمات المزخرفة وشواطئ جميلة من الخيال، والأخرى تمسك الأقلام كفنّانة وتقرأ ما بين السطور، تناقش وتحلّل وتعصر كلّ نصٍ لتأخذ منه قاعدة.. واستمتعتا سوية بجمال اللغة العربيّة وبقي رضوان يراقبهما وهو مطمئن.

وذاك البعيد القريب من القلوب يتلوّى ألما من فرط حنينه؛ أمّا الأمّهات فيدعين لأولادهن في غسق الدّجى بالنجاح والتفّوق.

الاشتياق

«ما أصعب أن نسافر بلا أسباب وعيوننا مليئة بالدموع، حاملين صورا ومشاهد للأحبة! تبقى الحياة حافلة نسير فيها؛ فنسمع قصصا ونأخذ عبرا...

فهناك من يتوقف وسط الطريق وآخر يستمر بالسفر فيحطّ هنا وهناك، هي الأيام ننسجها دوما بخيوط الأمل، لكن لمواجعها شعور فظيع، فهناك رحيل وافتراق ووصال، بعد وغربة وشوق.. وفي كلّ قلب تقبع نيران الألم التي يغطيها وجه هادئ، فكثيرا ما ارتجفت بنا الأيام وأصدرت أصواتا مختلفة، أتذكر عندما كنت في عمر الثامنة كنت دوما حينما أخرج من البيت يقول لي أبي يا بنيتي المظاهر خداعة، فلم أكن أعي ما يقوله، وأكتفي بالصمت تارة وبالضحك والتعليق عن قوله تارة أخرى، وعندما كبرت فهمت ما كان يقوله، فلا تصدر حكما قبل أن تسمع؛ ولا تشهد قبل أن ترى.. هناك وجوه تتصنع السعادة، هذه هي الحياة قصيرة جدا، فكن كالغيوم أينما ذهبت تهطل بالخير على كلّ أرض! ربما نلتقي بين الصخور وربما يتوقف نبض أحدهم ويرحل فجأة! فهناك أشخاص تحلو الحياة بوجودهم، ولا تستطيع نسيانهم لأنهم تركوا شيئا جميلا، جمعتك المواقف معهم، تدور الساعات وتدور لنعيش لحظات الندم والخذلان، الفرحة والتلاشي والاستمرار!».

تزين الليل بحلته السوداء فتأرجحت الأنفس بين الذكريات... ليلة أخرى تمرّ على زين في غرفته تلك التي ألف جدرانها، تزاحمت الأحاسيس فحمل قلمه وبدأ يكتب، فقد ورث الكتابة على تلك الزهرة المرهفة:

– جمعتنا الأيام يا نبض قلبي وفرقتنا الأيام، طيفك يلاحقني يا رهف.. أينما كنت أبصرك حولي، ذاكرتي تتذكر مراسم غضبك وصمتك المفاجئ الذي يجعلك في غاية الجمال، جعلت من حياتي أجمل ذكريات عمري! ليت محطة الزمن تتوقف عندك، ليتك بجانبي لارتميت في حضنك الدافئ وشكوت لك شظايا قلبي المحترق لشوقك، كان فؤادي جافا يحيط به الرماد فأحييته ونزعت أغلال ذاك السواد ورميتها بعيدا، حقّا كنت في سبات فكنت أنت الساعة التي توقظني لأستقبل الحياة بضحكة وابتسامة تنبع من قلبي.. غرست في روحي أروع روائح الإيمان وتعطرت بعطور القرآن المريح للقلب، والمزكي للنّفس.. الذي هو هدى لكلّ تائه وكنت كالظلّ الذي يحميني من أشعة الضلال الهالك، يا رهف لو لم ألتق بك لبقيت في أسفل السافلين! إنكّ معجزة أنرت سواحل قلبي.. أتذكر ملامحك فأشعر بالأمان، ستبقين محفورة في قلبي إلى أن يأخذ الله روحي! ويبقى الأمل رئة ثانية أتنفس بها من أجل أن أعود إليك.. قلب حنون يضعف كلّ ليلة والنّهار يكشف وجعه لكنّه مع الأحد الصّمد الذي يرى ويسمع... تبقى نوافذ السعادة تترنم على لحن الانتظار، فالحنين إلى مدينتي وأهلي ينهش روحي لكنّه وطني أرفض أن أتركه، فهو اللباس الذي يدفئني في الشتاء وخدمته تبقى على عاتقي... ثمّ اعتدل ورفع يديه داعيا الله وحدّثه بما يختلج في نفسه: «يا رب مدَّني بالأمان والراحة واجمعني بعائلتي ولا تفجعني بفاجعة، يا رب إنكّ تسمع ضجيج فكري فارزقني الصبر»، بكى زين وازدادت شهقاته وانهمرت تلك الدموع التي كانت دوما خفية.

حب من طرف واحد

بينما رهف تتصفح هاتفها إذ بها تجد رسالة في بريدها الذي هجرته لفترة طويلة:

- حيّاك الله، علمت أنك مريضة وحزنت لذلك أتمنى أن تكوني بخير، أعلم أنك صبورة لا تأبى الاستسلام، تمنيت لو أعطيتني فرصة لكنّي لم أمنح فرصة لعمري بأن أفصح عن مشاعري، كان شيء ما يدفعني لأن أصمت وفقط، انتظرت لعلّ باب قلبك ينفتح لي وأكون من نصيبك لكنّه ربما ينبض لغيري، راقبتك من بعيد دون أن تنتبهي لوجودي، أحببتك كما أنت! أحببتك أكثر مما ينبغي.. ويا ليتك كنت لي، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهيه أنفسنا، عندما تقرئين الرسالة أعلم أنك ستلومين نفسك، لا تبك فلا لوم على عاشق قد عشق ولا إرادة في الحب، لا تحزني ستداوي الأيام جرحي.. ترمينا الأيام ككُرة من مكان إلى مكان وحالنا بالأمس هو حالنا اليوم، نشعر بتلك الركلات نتألم ولا أحد يسمع، حتى السنين تعاملنا كهشيم تذروه الرياح، مضت بي سفينة الأقدار وتوقفت عند قلبك كأنك جزيرة في عرض المياه، وقفت كي أنزل ويا ليتني ما نزلت، آه ما فعل بي حبك! قذفه الله في قلبي، عندما أراك تمشين أتحرر من قيود الماضي، فضحكتك كنت أراها وكانت لي دواء وفراقك داء وسمّ قتلني، حضورك في المدرج يجعلني بكامل قواي، يطفئ حريق اليتم الذي بقلبي، لا أعلم لكنّك من بين كلّ الناس كنت أنت من خطف قلبي بشرودك الذي يجعلك جميلة جدا، الذي لاقاني بك هو حب اللغة لكنّك كنت أنت اللغة بحد ذاتها.. مضيت في حبك دون أن تعلمي، مع أني كنت أعلم أنك لست لي وكنت أعلم أنّ الأيام لن تريني إياك مرة أخرى، أنا الآن أعيش الأيام

من غير ندم لأنك حقا جعلتني أحب نفسي وأحب الحياة، تركت أثرا طيّبا من خلال نقاء قلبك الذي تتفجر منه روائح البنفسج.

نمضي ولا ندري ما الذي تحمله الأقدار لنا، سيكون لك مستقبل زاهر، ستكونين يوما ما كاتبة ناجحة، وأنا أنتظر كتاباتك على أحر من الجمر، سأسافر إلى مصر لأكمل دراستي لعلّ قلبي ينساك وأمنح نفسي فرصة ثانية. وفي آخر الرسالة توقيع باسم الزميل «جهاد».

انفجرت رهف باكية وتذكرت العام الماضي حينما كانت منضمة لأحد النوادي الثقافية وكان هناك شخص يدعى جهاد، كان يشاركها ما تخطه ويصحح لها ويوجهها ولم تتوقع أبدا أنه قد أحبها فكان بينهما رابط حب اللغة والكتابة فقط، مضى عام كامل على ذلك النادي وكانت تراه أحيانا في بهو كليتها وتلقي السلام عليه وتنصرف، لكنّه كان ينتظر لو أنها تفتح حديثا معه ويا للأسف لا تستطيع أن تكلمه لأنهّا غادرت ذلك النادي!

هيهات! الحب لا يستأذن.. الرسالة كانت مؤلمة على قلب رهف فبدأت في نوبة بكاء حادة تحت تلك الوسادة التي حملت كثيرا من دموعها ونامت والدموع ملتصقة بعينيها.

«الحب من طرف واحد نار تحرق الجسم، الحب من طرف واحد عذاب وعذاب، وعذاب!».

في الصباح ارتدت رهف ملابسها وتوجهت مباشرة نحو البحر الذي كان يبعد عنهم لتشكو له آهاتها، فالبحر يستقبل كلّ المهمومين، هو صامت لكنّه يحرّك ذاك الضجيج الذي بداخلهم! تفصح عن مشاعرك وتحكي له مغامراتك... وبينما هي تراقب الأمواج والسماء إذ بهاتفها يهتز رنينه فأجابت:

– نعم يا مريم، أنا في شاطئ البحر، تعالي إن لم تكوني مشغولة.

– سآتي حالا، لا تتعبي نفسك... وقد كان بنبرتها شيء ما فأحست مريم بذلك.

وصلت مريم إلى عين المكان وعانقت رفيقتها وقصت عليها ما حصل، فطمأنتها وخفّفت من حملها وبقيتا هناك تتجولان... وطمأنت رهف بأنّ كلّ شيء تحت مسمى القدر!

حقا الصديق من يحبك في يسرك وعسرك وكما قال العقّاد عن الحب: «وخلاصة التجارب كلها في الحب أنك لا تحب حين تختار ولا تختار حين تحب» فالحب فطري لا إرادة فيه.

سافر جهاد عن موطنه واتجه لمصر ليتعلم ويطور نفسه وربما يدفن حبه هناك!

رحل بصمت!

رحلة إلى الهضاب العليا

مضى ذاك الأسبوع مسرعا فأكملت رهف ومريم المذكرة وسلمتاها للأستاذ من أجل تصحيحها.

في أمسية تجمع شمل العائلة دعت السيدة حليمة عائلة زينب للعشاء فقبلوا الدعوة.. وبينما أفراد الأسرة يتناولون الطعام تحت صخب ريماس وضحكاتها وتحاورهم جميعا تنحنح هيثم قائلا:

– الحمد لله أنّ الجميع بخير، وأننا قد أمضينا أوقاتا صعبة مع بعض.. ثمّ وجه كلامه إلى رهف: كنت قد وعدتك يا رهف بأن تزوري مدينة سطيف التي أعمل فيها، وها أنا اليوم أخبرك أنه غدا سيكون سفرنا إلى هناك.

سعد الجميع بهذا الخبر فحقا هم يحتاجون لمثل هذه الجولة لتجديد أنفسهم والترويح عنها ثمّ قالت رهف: سنأخذ مريم معنا، لأنهّا تعبت معي كثيرا.

ليجيب هيثم: على الرحب والسعة، أهلا بها بيننا.

في الصباح جهّز الجميع أنفسهم ولبست الصديقتان حجابين بنفسجيين ووشاحين سوداويين وكانتا كتوأمين، وفي أثناء رحلتهم هذه بدأ هيثم يحدّثهم عن هذه المدينة..

– سأعرفكم بهذه المدينة التي أعشق هواءها وترابها، إن مدينة سطيف من أكبر المدن الدّاخلية في جزائرنا الحبيبة وتشتهر بالتجارة وتحتوي على تضاريس مختلفة كما أنّ بها لهجات مختلفة، معروفة بالبرودة الشديدة في الشتاء حيث تكون جبالها مكسوة برداء الثلج الأبيض كجبال البابور

مثلا!

قاطعت رهف هيثم قائلة: إذن الجو هنا جميل في الشتاء، أعشق الثلج يا عمّي.

فأجابها ضاحكا: لن تتحملي البرد هنا يا رهف، لأنك اعتدت على طقس العاصمة... وأكمل حديثه: دون أن أنسى مدينة جميلة الأثرية التي تقام فيها المهرجانات الثقافية في كلّ موسم صيفيّ أو ما تسمى بكويكل فهي من أقدم المدن الرومانية، فيها توجد تماثيل قديمة بزخرفات عمرانية رائعة، خاصة في فصل الربيع حينما تكتسي أرضها العشب الأخضر، وتلك الأعمدة الشامخة تكون غاية في الجمال وهي قبلة للسياح من كل مكان.

سألت مريم هيثم: ماذا تعني كلمة سطيف؟ أقصد يا عمّ ما أصلها!

أثنى هيثم على سؤال مريم وقال: سؤال في محله كلمة «سطيف» حسب ما طالعته من مقالات كانت سابقا «أزديف» ثم أطلق عليها «سيتيفيس» وتعني التربة السوداء.

صرخ محمد: ها قد وصلنا أخيرا.

كانت الطريق مكتظة بالمارة والراكبين ثمّ صاحت رهف: يا إلهي «عين الفوارة» ها قد زرتك أخيرا!

كان يقابلها مسجد عتيق في وسط المدينة، فعلا لوحة فنية تاريخية، شرب الجميع من مياهها العذبة ثم قال هيثم: يقال أن من يشرب من هذه النافورة يرجع إليها.

ثمّ قالت خليدة: تعال والتقط لنا صورة جماعية... وما زاد الصورة بهاء براءة ريماس وشعرها الأصفر البرّاق!

ومن تلك النافورة توجهوا إلى الشوارع ينظرون من هنا وهناك إلى تلك المباني الشامخة فمازالت صامدة من عهد الثورة يسيرون سربا سربا وهيثم يحدثهم وكأنّه مرشد سياحي.

– لا تنسِ يا مريم أنّ هذه المدينة شهدت أكبر المجازر ٨ماي ١٩٤٥ راح ضحيتها آلاف الشهداء رحمهم الله... وبينما هم يسيرون قرّر هيثم أخذهم إلى «المول» فالتقطوا صورا ووجدوا أغراضا بثمن معقول فاشترى محمد لعبة له ولرياس؛ أمّا رهف ومريم فاشترتا حليًّا وكتبا ثم مرّوا على الحديقة التي بجانب المول والتي كانت تكتظ بالآباء وأبنائهم فاستغلت رهف ومحمد ومريم الفرصة وركبوا في لعب كثيرة، بينما خليدة وزينب وهيثم اكتفوا بالجلوس على المقاعد يراقبونهم.

دائما استمتع بحياتك ولا تدع أحدا يمنعك لذّة شيء يفرحك، فالمهم هو سعادتك ورضاك أنت!

حان موعد الغداء، في قاعة عائليّة جلس الجميع على طاولة كبيرة وهناك تناولوا الشواء.. الكل مسرور وسعيد ومضت الساعات بخفّة إلى أن وصلوا إلى البيت ليلا وعادوا بروح جديدة، استراحوا من رحلتهم تلك وجلسوا جميعا يشاهدون التلفاز، بينما محمد ورياس يلعبان بالألعاب، فسألت رهف هيثم: صحيح يا عمّي، لم تخبرنا ما قصة تمثال النافورة؟

– آه، هزّ هيثم رأسه.. لقد نسيت ذلك لقد أجمعت الألسن على أنّ تلك المرأة نحتت على يد «فرانسيس دوسانت فيدال» والتمثال يروى أنه كان لمحبوبة أحد الحكام الفرنسيين وقد تزوجت من شخص آخر فطلب الحاكم أن يتم نحتها ووضعها على منبع ماء تخليدا لحبه الذي يبقى متدفقا كتدفق الماء، وقد ذكر الشاعر الجزائريّ «صادق الغربي»

كلمات عنها:

يا زاير سطيف قدم تحية

وأهلا بيك اليوم في بلاد الهضاب

أتقدم وأرواح زاير بالنّية

وعامر لحرار للضيف أحباب

عين فوارة والقطرة حيّة

تروي العطشان ولي جاها ما غاب.

أعجبت رهف بتلك المدينة العريقة، ثمّ تكلم محمد: وماذا عن النسر السطايفي؟

ضحك هيثم وخليدة، ثم قالت زينب: إنه من مشجعي ذلك الفريق ويحبه كثيرا.

ردت خليدة: إذن، محمد صار مهتما بكرة القدم.

فقالت رهف: كل الأطفال يعشقونها!

أجابه هيثم: لا أنكر فهو فريقي المفضل في البطولة المحليّة ويلقب بعدة تسميات: نسور الهضاب، أولاد الكحلة والبيضاء، متألق دوما ونال عدة ألقاب، على الصعيد الإفريقيّ نجد نيله لكأس السوبر الإفريقيّ أمّا عربيّا فقد فاز في دوري أبطال العرب لمرتين وملعبه متواجد في الجهة الغربيّة من المدينة ويطلق عليه ملعب «٨ماي ١٩٤٥» كما يسمّى ملعب النّار والانتصار وأفراح ذلك تشاركها إياهم تلك النّافورة الساحرة، ومن عاداتهم أنهّم يضعون الكأس في إحدى المنابع ويملؤونه ماء ويشرب منه اللاعبون كي تتوالى الأفراح والانتصارات

وتنحصر على النّسر الأسود.

وبهذه المعلومات اكتشفت العائلة إحدى مدن الوطن الحبيب، كثير منّا لا يعرف وطنه وهذا عار، فنصيحتي تثقّف وتعلم أصول وطنك وعاداتهم وتحاور في كلّ شيء يخصّ العلم والاكتشاف، فقصص التاريخ ممتعة.

لقاء بعد فراق

استلام الشهادة قد اقترب بعد مجهود وعناء كبيرين من رهف ومريم، وتحقّق ذلك بتوفيق من الله وبالعزيمة والإصرار، فقوّة الإرادة تجعلك تحقّق ما تطمح إليه، فقط ثق في كلّ ما تمتلكه وكفّ عن إلقاء الأعذار، ولا تحطم نفسك لأنك حتما لو كنت تريد ستصل إلى ما تريد ولا تنتظر أحدا أن يمسك بيدك، بل كن أنت الشّعاع الذي ينبض بالأمل وسر بتوكل ولا تخف فمنْ توكل على الله كفاه، فالحياة صراعات بين مدّ وجزر فأكبر العلماء فشلوا لكنّهم جعلوا من فشلهم جسرا وواصلوا، أنت المسؤول عن فوزك وعن انهزامك فغيّر أفكارك للإيجابية وسترى أنّ أهدافك ستكبر وتتغيّر.

كسرت رهف وتمزقت، تعثرت لكنّها لم تستسلم، تخلصت من قيود اليأس بإيمانها وحلقت في سماء الأمل بجناحيها بثقة على الرغم من تلك الندوب والجروح، نعم طارت ورفرفت دون توقف حتى لو أتى الشّتاء وتعرت الأشجار من الأوراق فإنّ الربيع حتما سيأتي ويزهر، فلا تقلق فلابد من العواصف وتقلبات الزمن كي تتعرف على نفسك، تأكد من أنّ الله لن يضيع تعبك فكلمّا ظننت أنّ الطريق سينتهي أمدَّك الله بطاقة عجيبة، فالفرج سيتوالى عليك وتجتمع بما تمنيته دوما. لا شكّ لي بأن أياما ولياٍل مضت عليك واقتنعت بأنه لا حلّ لها فغرقت في حزنك لكنّ الله أدهشك حينما ظننت أنها النّهاية! جعل الله لك بداية جميلة، فالله وحده من يزيل شوائب الغم عن قلبك فقط كن قريبا منه، قليل من الصبر وكثير من الدعاء لتسعد!

في المساء اتصلت مريم برهف كي تطمئن على حال استعدادها..

– كيف حالك يا رهف؟ ترى ما الأجواء عندك؟

– الحمد لله الأمور بخير متحمسة كثيرا... جاء اليوم الذي انتظرناه طويلا، أخيرا سنحصد ما زرعناه.

– حقا، نامي باكرا، نلتقي غدا إن شاء الله.

أغلقت رهف الخطّ، ظلت تدعو الله أن يوفقها، تأملت النّجوم لتطمئن قرارة نفسها.

«كلنا نجوم مضيئة في سماء أحدهم، ربّما ننطفئ لكنّنا نقوم لنحارب، لنسير في الطريق الذي رسمناه، فبالإرادة تكسر قيودك وتصنع أحلامك».

بقي زياد يستجمع ذكراه لحفل تخرجه رفقة أصدقائه، رنّ هاتفه فأجاب وعيناه مغمضتين: نعم، من المتكلم؟

صمت زين للحظة وترنح بصوته قائلا: شخص مغترب يريد الرجوع إلى حضن صديقه، فهل تسمح بذلك؟

صاح زياد: زين، زين هذا أنت، أنا لست في حلم!

– نعم زين، توقف عن الصراخ كي لا يسمعك الذين من حولك.

– كيف حالك يا صديقي؟

– بخير مشتاق إليكم.

– وأنا كذلك.

– زياد متى سيقام حفل تخرج رهف؟ غدا سأعود لديّ إجازة.

– يا للسعادة! غدا سيقام الحفل يا صديقي، وليتك تأتي ستكون أجمل

هدية تهديها لرهف، سيقام على الساعة العاشرة إن شاء الله.

– حسنا، إن شاء الله سآتي غدا، احمل معك هاتفك ولا تخبرها إياك! سأغلق الآن.

– تصبح على خير يا زين.

كان خبرا مفرحا لزياد، تمدّد على سريره وبقي ينتظر قدوم النّهار للقاء خليله، كانت ليلة بيضاء لم ينَمْ أحد فمريم تتحدث مع يوسف الذي يشجّعها ليوم الغد وزينب تشاهد صورا لابنتها وهي صغيرة وزين يحضّر نفسه لليوم الموعود، إنها ليلة انتظار طويلة، شوق ونجاح، حماس ووصال وكأنّ حياة جديدة سينبعث ميلادها من جديد في قلب كل واحد منهم!

ما يرهق كلّ فتاة أن تصل إلى منصة النجاح دون أن يشاركها ذلك أبوها، مؤسف حقا فلا يوجد شخص يفرح لإنجازاتك كأبيك!

رفع آذان الفجر، قامت رهف وتوضأت وأدّت صلاة الفجر في جوّ هادئ وروحانيّ.. فبداية اليوم بصلاة الفجر نجاح وفلاح، بركة وراحة، أمان واطمئنان، فطوبى لمن أدركها وبئس لساهر سهر الليالي ونام عنها، فعندما تؤديها يمتلئ خزّانك بالحسنات ويحميك الله من كل أذى، أطالت رهف الدعاء لمدة وهي ساجدة فأقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد، عندما ترمي تلك الدعوات على سجادتك ستصعد إلى السماء، بسجودك أنت أقرب إلى الذي خلقك، تفرغ كل آلامك وموقن بأنّ الله سيعطيك، كلّ الأشياء تأتي في الوقت المحدد.

خرجت إلى حديقة بيتها لتراقب دجاجاتها الصغيرة وتنزهت بين تلك الأشجار التي منحتها هواء ونسيما نقيا، ثم دلفت إلى البيت لتجد أمّها تحضر فطور الصباح، تناولت فطورها بسعادة عارمة ومحمد

يشجّعها وسعيد لأجلها، ثمّ جهزت نفسها وارتدت أجمل حجاب تملكه وغطت شعرها بخمار طويل زهريّ اللون ووضعت في معصمها الساعة التي أهداها لها زين وفي حقيبتها لباس تخرجها الذي خاطته لها خليدة، كان أسود اللون تزينه شرائط زهرية زادته أناقة وجمالا وقبعة كبيرة كتب فيها اسمها.

الباب يطرق.. فتحت رهف الباب لتجد مريم وزياد بانتظارها، فاستأذنت أمّها وطلبت منها أن تأتي رفقة أهل مريم بعد ساعة.

رهف: مستعدة ليومي الجميل برفقتكما.

ذهبوا معا في جوّ بهيج وابتسامات مفعمة بالأمل وبعيون مصرة على تحقيق الحلم.

بعد رحلة طويلة وصل زين على الساعة التاسعة إلى مدينته، واتجه مباشرة إلى الجامعة واتصل بزياد فلم يتمكن زياد من الرد عليه، فرهف كانت هناك وخاف أن تشعر بوجوده، فاكتفى بإرسال رسالة وأخبره أنه على وشك الوصول، بقي زين ينتظر في الجهة الخلفية للجامعة كي لا يلحظ وجوده أحد وتذكر كلّ الذكريات فقلبه يحترق شوقا لرؤيتها، جعلته يخاف عليها كأبٍ وولهان بها كعاشق، توجهت الاثنتان إلى الكلية وهناك تحدثتا مع زميلاتهن ولبسن لباسهن؛ بينما زياد ذهب خفية إلى المكان الذي يتواجد به زين. ها هو يلمحه من بعيد بجسمه الضخم، تسريحة شعره المعتادة وقامته، يجري كل منهما ولا يحس بقدميه إلى أن لامسا صدرهما واحتضنا بعضهما بكلّ قوّة والفرح يطير من عيونهما... لتقف الكلمات عاجزة للتعبير عن ذلك، نعم إنه الفراق وما يتدفق منه من حنين لا يمكن للسان أن يصفه!

زياد: هيا أسرع كي لا يلمحك أحد.

قالها زياد وهو يمشي خلف صديقه ودخلا القاعة التي سيقام فيها الحفل، كانت قاعة كبيرة وبها آلاف الكراسي، حشد غفير من المنظمين والطلبة وأحبابهم، جلسا بجانب بعض وقد كان زين مرتديا قبعة سوداء اللون كي لا تلمحه رهف فحتما سيغمى عليها لو رأته الآن.

«وأجمل ما يهديك القدر شخص يحبك بكل جوارحه ويفعل كل شيء ليراك بلحظاتك السعيدة، شخص مختلف عن كلّ الذين صادفتهم، تراه بقلبك لا بعينك، يظلّ في داخل كل واحد منّا فراغ كبير لا يملؤه إلا وجود من نحب».

وصلت زينب رفقة هيثم وخليدة ومحمد وأهل مريم، وجلسوا مع بعض ينظرون إلى تلك الأجواء، كل الطلبة فرحين سيماهم على وجوههم من الفرح، أمّا زين بقي ينظر هنا وهناك لعله يجد ضالته، لم ير وجهها حتى استدارت وهي مبتسمة.

– إنها رهف، ببسمتها، وحشمتها ونعومتها. آه من بريق عينيها، ما زالت ملامحها هادئة وبسيطة... ظلّ يحدق بها إلى أن قاطعه زياد وأخبره أن يمسك نفسه ولا يصرخ كي لا يلفت انتباه الناس.

كانت رهف ومريم تجلسان في المقاعد الأمامية برفقة أستاذهما رضوان ترتديان لباسهما الأنيق وتلك القبعة كتب فيها اسميهما فزادتهما وسامة. ها هو الحفل يعلن بدايته، بدأ النشيد الوطنيّ بمكبرات صوت عالية، كم أحب نشيدنا الوطني حقا، يقشعر جسمي عند سماع كلماته.. ما إن تمّ النشيد الوطنيّ جلس الحضور وألقى رئيس الجامعة كلمة افتتاحية ومضى الوقت إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة التي ينتظرها الجميع. بدأت المناداة على أسماء المتخرجين، وما إن نودي باسم رهف حتى أطلق لسان أمّها زغاريد والدمعة كانت سبّاقة. نزلت رهف لتستلم

شهادتها وهي تلوّح بيديها وتنظر إلى عائلتها وبرفقتها مريم التي تدمع عيناها وأهلها كادوا يقفزون من الكراسي فرحا على تلك المنصة، رأت زينب ابنتها التي ربتها واعتنت بها وانتظرت لسنين هذا اليوم، وها قد صار الحلم حقيقة ملموسة، محمد يصرخ وينادي على رهف بكل سرور وحماس وزين وقف ينادي رهف، رهف! إلى أن دمعت عيناه لرؤيتها فرحة ثمّ جلس وتمالك نفسه، كاد يحتضنها! لولا منع زياد له.

اختلطت مشاعر الجميع، فرحة لا توازيها فرحة، الحلم المنتظر ها قد تحقّق واستلم الجميع شهادته الجامعية والكلّ مبتهج، هي لحظة ينتظرها كلّ الآباء والأمّهات ممزوجة بنكهة التميز والإبداع، لحظة ينتظرها أيّ متخرج لرؤية الفرح في عيون والديه، هو يوم الحصاد وقطف ثمار ما تعب الجميع من أجله، صحيح أنّ الدراسة متعبة كثيرا، لكن عند تلك اللحظة تنسى كل آلامك. غادر الجميع القاعة بعد أن تلقوا المباركات من كلّ الناس.

المفاجآت ستحدث الآن! نعم اليوم يوم لقاء الأرواح والكلمة للعيون، غادر زين وزياد المدرج وبقيا في الخارج ينتظران قدوم رهف ليقول زين عند أول نظرة وجدها فيها هناك بينما كانت هي تلتقط صورا مع مريم للذكرى.

– مبارك تخرجك يا رهف.

لا تحس إلّا بنبضات قلبها تتسارع وكأنّ عقارب الزمن توقفت هناك لتلتفت وترى زين أجل إنه هو، بقيت جامدة كصخرة تنظر إليه بدهشة، سقطت الحقيبة من يديها وتقدّمت نحوه واغرورقت عيونها.

– زين هذا أنت لست في حلم أليس كذلك؟ تلتفت لمريم وتقول لها: لست في حلم، كثيرا ما أرى الأحلام!

لتبقى مريم مندهشة من وجوده وأجابتها: لست في حلم، زين قد عاد.

أجاب زين بكل براءة وقلبه يكاد ينفطر ويداه ترتجفان: أنا زين ولست في حلم، عدت لأشاركك فرحة هذا اليوم.

انهارت رهف واحتضنته بقوة، قلباهما يدقان في نفس اللحظة.. تحوّل المشهد لصرخات وبكاء وفرحة، ثمّ نظرا لعيونهما وكان بريق العشق هناك، عند تلك اللحظة ضاع زين وكأنّ تلك النظرة في بؤبؤ عينيها لخصت له كلّ شيء ثم قال:

- رأيتك أخيرا وشعرت بفرحتك، انتظرت هذا اليوم كثيرا أنا مسرور من أجلك وقلبي يغرد لك كذاك العصفور حبا وشوقا!

ردت رهف بصوت حنون: لست مصدقة ما يحدث، اجتمعنا مرة أخرى!

التقت الأرواح أخيرا بعد فراق وألم وشوق لقلبين احترقا معا ولم يفترقا.

طال البعاد يا رفيقة عمري وها قد أتى الوصال ليزين الطريق ونكمل المسير، مرت دقائق على حالتهما تلك؛ كانت الفرحة فرحتين، التقطت مريم صورة لهم جميعا وخلد ذلك اليوم ذكراه في قلب كلّ منهما، جميل أن تنتظر كثيرا وترى بعينيك ما انتظرته!

قدّم زين كتابا لرهف بمناسبة هذه الفرحة وكانت رواية معنونة: «أنت لي»، غادر زين المكان والفرحة تملأ قلبه وانصرف الجميع.. يمشي وهو سعيد بعودته لبيته من جديد وكل شارع يمرّ به تفوح منه ذكرى مع أحد أصدقائه.

دقّ الباب ممسكا قلبه من شدّة الفرح لتقابله أريج بذراعيها وطوّقته طويلا وهي تصرخ وتنادي على أبيها وعيناها منهمرتان بدموع الفرح، ارتمى الأب نحو ابنه وكأنه لم يره منذ أعوام إنها الغربة والبعاد.. تحرق القلب!

كانت ليلة وصال زين بأهله وبمحبوبته، ليلة اكتمال الأماني والأحلام لرهف وليلة عزف أعذب الألحان لقلبين رائعين ليوسف ومريم، وليلة هدوء وطمأنينة لإبراهيم الذي بالرغم من ماضيه تحوّل إلى شاب مصلح ومحبٍّ للخير.

أنت ملاكي

عندما تحب ستهتم بكلّ التفاصيل الصغيرة، ستغار وتضحي من أجل أن تكون مع من تمنيته.

لم تستطع رهف النّوم وبقيت تستعيد مشاهد اليوم الجميل، أمسكت مذكرتها وشرعت في الكتابة:

«ها قد تحقّق جزء من حلمي، ليتك كنت معي كنت فرحة كثيرا لكن الحسرة التي بقلبي أخفيتها، تمنيت لو عانقتني، وافتخرت بي، وبكيت معي لتلك اللحظات لكنّه القدر يا أبي، ها أنا أكتب لك يا قطعة من روحي، لقد كان شعورا غريبا، أحسست وكأنني ناضجة والسماء لا تكاد أن تحمل فرحتي، تذكرت كلّ أيامي ومعاناتي وذكرياتي مع أساتذتي وأصدقائي، تذكرت حرصك وتعليمك لي، تذكرت أيام كنت تنتظرني لأخرج من المدرسة وكلّ شيء متعلق بك يا أبي؛ صرت مسؤولة عن نفسي وتفصلني مرحلة أخرى لأضع النّقاط على ما تبقى من طموحاتي. ها قد وصلت يا أبي اليوم إلى بوابة النّجاح التي طالما تحدثنا فيها معا، هو نجاح غير مكتمل لأنّ الدرب مازال طويلا ولا يمكن أن يتوقف طموحي هنا لكنه يعطيني مفاتيح أكبر، وراء كل حفرة اجتزتها في هذا الطريق الوعر كنت أنت معي! أضفت فيها درجة لسلم حياتي وقوّيت بها نفسي، كنت أتمنى لو أنك كنت بجانب أمي التي لم أرها سعيدة كهذا اليوم، أبي نجاحي كان ممزوجا بمرارة فقدك لكن هيهات! أخذك الموت منّي وجعلني أنزف، لكنّي أعدك سأحقّق كل ما كنت أطمح إليه، سنلتقي في الجنة وهناك لن أفترق عنك أبدا، سأكلمك عن كلّ شيء، أجنحة حلمي رأيتها اليوم بأمّ عيني على الواقع فكما كنت تخبرني لا أحد يمكنه أن يصل دون تعثر

وقد ورثت الإرادة منك، قبل وصولي إلى هذه المرحلة سقطت لكنّي نهضت وواصلت، أحبك يا روحا لن تفارق قلبي، فلتنم بهدوء».

تمدّدت على سريرها ونامت.

صديقي تستطيع أن تحقّق إنجازاتك، فكل خلية بداخلك تناديك لتبدأ طريقك، لا عذر للأعمار والظروف، النّجاح يحتاج منك جهدا وصبرا واستمرارا؛ الأمر صعب لكنّه ليس مستحيلا فاجعل طموحك أرضا خصبة تنبت منها ثمرات التألق والمجد، وازرع بذور الأمل في خلاياك واسقها بعزيمتك وحسن ظنّك واحمل القرآن في صدرك لتقطع كل سواد وشائبة تواجهك وأعدك أنك لن تهزم، فالله قد منحك ورقة بيضاء فلا تطل النّظر إليها، بل اكتب فيها أحرفا مزخرفة وجميلة، ولا تنس يا صديقي أنّ لك عمرا ستسأل فيما أفنيته، فاجعل طريقك طريق علم وعبادة والشمس التي تنتظرها ستشرق يوما ما. فابدأ حياتك وجدّدها من شبح اليأس ولا تهتم إن قال النّاس لك أنكّ فاشل فأكبر العلماء فشلوا لكنّهم واصلوا، فالفشل يولد النجاح وجالسْ مَنْ لهم أحلاما ويتمتعون بإيجابيّة وابتعد عن الذي يثبّط عزيمتك وعن الذين خامدة أرواحهم، واقترب من المصابيح التي تنير غرفتك وتبّث فيك حب الحياة وحاول أن ترفع من شأن نفسك لأنّ الحياة رائعة، فقط اتبّع مسارا صحيحا، فكما قال الشاعر:

كان حلما فخاطرا فاحتمالا ثمّ أصبح حقيقة لا خيال

فها هي رهف تشعل دعاءها بلهيب الأمنيات التي تصاعدت إلى أعالي السماء لتكون واقعا معاشا بعيون فرحة، مضى يومان على قدوم زين إلى مدينته وقرّر أن يحدّث أباه عن تقدمه لخطبة رهف لكنّه كان متوترا قليلا.

زين: أريج أين أبي؟

أريج: إنه في الخارج يا زين.

– حسنا، اذهبي إلى غرفة الجلوس وسأبحث عنه، هناك شيء سنتكلم عنه.

أومأت أريج برأسها وبقيت تنتظرهما وهي قلقة فملامح زين كانت هادئة.

زين: أبي، أريد أن أتحدث معك في موضوع هامّ إن سمحت بذلك.

الأب: تفضل، اجلس هنا ولنتحدث... كان أبوه جالسا بجانب المنزل يقرأ جريدة.

زين: المعذرة يا أبي، لنتحدث داخل المنزل فأريج تنتظرنا... اجتمع الجميع وأعطى الأب الكلمة لزين كي يتحدث.

زين: هل تذكران حفيدة الجدّ عمر التي شاهدناها في التلفاز ذات يوم؟

أجاب الأب وابنته في لحظة واحدة: نعم، نتذكرها ما بها؟

– أريد أن أتزوجها يا أبي.

فرح الأب بذلك وقال: كبرت وستؤسس عائلة، نعِمَ البنت.

عانقت أريج أخاها وهي مسرورة بذلك وقالت: أحسنت الاختيار، لا شكّ لي بأنها ستكون أفضل زوجة لأنها بنت محترمة.

فرح زين وقال: إذن أنتما موافقان فلنجهّز أنفسنا، غدا نذهب إلى خطبتها لأنها استلمت شهادتها الجامعيّة قبل أيام.

زين: أريج فلنذهب إلى السوق لاقتناء ما يلزمنا.

– انتظرني، سأجهّز نفسي وألحق بك.

توجه زين مع أخته إلى الحافلة وبينما هما يتحدثان عن قائمة المشتريات هناك لمحت أريج مريم وبجانبها رهف تنحنحت وقالت: انظر إلى هناك، إنها رهف.

حدّق زين بحبيبته وابتسم. لوّحت مريم بيدها لأريج مبتسمة ثمّ ذهبت إلى رهف لتخبرها بقدومهم غدا إلى منزلهم، احمّرت وجنتا رهف وتبادلت النّظرات هي وزين من بعيد، توقفت الحافلة في وسط المدينة وكانت تعجّ بالنّاس، ونزلت أريج وأخوها ليكملا طريقهما مشيا، أمّا رهف فطارت من الفرحة واتجهت إلى بيتها والبسمة لا تفارقها.

بين تلك الأشجار والأزهار الفوّاحة كان محمد برفقة أمّه جالسين هناك إلى أن شاهدا رهف ومريم من بعيد وأصوات ضحكاتهما عمّت المكان.

رهف: أمّي، أمّي غدا سيأتي أحد لخطبتي.

أجاب محمد باستغراب: أليس طويل الشعر؟

رهف: نعم هو.

ردّت الأم متعجبة بصوت حادّ: منذ متى تعرفينه؟

صمتت رهف وتوردت وجنتاها، لتلطف الجو مريم: كان يدرس معنا يا خالة، وقد أعجب بمريم ومنذ قليل التقينا أخته وأخبرتنا... هيا لنحضر لهذا اليوم.

تنهدت الأمّ وقالت: تمَّ الله الأمور على خير، هيّا ادخلوا للمنزل

فأشغال كثيرة بانتظارنا.

رهف: سأتصل بعمّتي لتأتي الآن.

ضحك محمد قائلا: سأكون صهرا طيّبا.

ردّت رهف: ستساعدنا في التجهيزات يا عمدة.

كان الجوّ حارا ومشمسا وكلا العائلتين تحضران لهذا اليوم المبارك، دخل زين هو وأخته إلى المحلات التجارية واشتريا ثوبا لرهف وعطورا جميلة وخاتما رائعا وساعدته في ذلك أريج ثمّ توجها إلى بيتهما واتصلا بخالتهما وعمتيهما في المساء، ثمّ أخبر الأب زين وأريج بأنّ أختهما ريم لن تتمكن من المجيء من فرنسا لأنّ زوجها مريض، حزن الجميع لكنّها مشيئة الله، كانت الفرحة كبيرة لكن فرحة العاشقين أكبر!

في بيت رهف انهمك الجميع في التحضير بين ترتيب المنزل وتنظفيه في يوم مميّز وبين صنع الحلويات والمأكولات. كان زين يرى رهف دنياه، أحبّها دون أن ينتظر منها أن تحبه، سعادة كبيرة تغمره وحرقة في قلبه لعدم وجود نبع الحنان معه، لا يصدق أن الغد سيكون يوم رؤيته لرهف، كلا العائلتين قضتا سهرة ممتعة بتعليقات وضحكات عالية وسط جوّ عائليّ أكثر من رائع. البيت في تلك الأمسية ينسج أجمل مشاهد للفرحة وبدأت القصص والحكايا والمغامرات تسرد حول طاولة بها الشاي الذي يظلّ شاهدا وفيًّا على كلّ القصص.

نعمَ الجار الطيّب الذي يشاركك أفراحك وأحزانك وبحضورهم صارت الفرحة فرحتين والفكرة كانت لزينب حيث كلمت خالد وسعاد للحضور معهم في هذا اليوم.

نام الجميع بعد يوم متعب إلّا رهف التي جالت بها الذاكرة إلى أبيها،

استفاقت مريم لتشرب الماء لتجد رهف ما زالت مستيقظة جالسة فوق مكتبها تشاهد صورا جمعتها بأبيها وهي طفلة لم تقل مريم شيئا، صممت ثمّ قالت لها رهف:

– أتعلمين يا مريم أنا مسرورة لكنّ فراق أبي يكوي قلبي، لو كان معي لكان ميّتاً من سعادته.

ردّت مريم: أحس بوجعك إنه القدر، سيكون زين نِعْمَ الزّوج لك.

ابتسمت رهف وعانقت صديقتها ونامتا على سرير واحد تحضنان بعضهما البعض. استفاق الجميع على أشعة ذاك القرص الأصفر الذي بعث أشعته الدافئة، العصافير تعزف أعذب الألحان كأنها أحست بالفرح اليوم، أمّا تلك الحقول فقد لبست ثيابا خضراء خاطفة الأنظار لتزين الأزهار بشتى الألوان العَبِقَة، فها هي روائح الياسمين والنرجس تعُمّ الأرجاء ومحمد وريماس يصنعان منها أشكالا مختلفة، وارتدت ريماس تنورة بنفسجيّة جعلتها كفراشة تنتقل هنا وهناك، وفي تلك الغرفة رهف ومريم تحضّران لهذا اليوم، تزينت رهف وقد كانت في غاية الرّوعة بعد أن انتهت مريم من تزيين رهف قالت: اليوم حتما سيختطفك زين!

ضحكت رهف وقالت: أنا متوترة كثيرا أول مرة سيراني بهذا الثوب!

ردّت سعاد بعد أن كانت واقفة خلفهما: تصرفي بعفوية وسيكون كلّ شيء كما تريدين.

وصلت سيارة أهل زين لتركن أمام البيت ونزلت منها نسوة وعجوز بينهم وهي جارة زين «ياقوت» التي أحضروها معهم تكبيرا وتعظيما لشرفها، فهي تنحدر من أصول سطايفية كانت ملامحها تقطر حلاوة ممزوجة بالكبر، ترتدي ما يسمى «البينوار» وهو لباس تقليدي

عند أهل تلك المدينة وتحمل بيديها طبقا مغلقا به شتى أنواع المكسرات والسكريات بأحجام وأذواق عديدة ويسمى عندهم «المقشقشة»، دخلت النّسوة واستقبلتهنّ زينب بترحاب، وفي الخارج تصافح الرجال مع بعضهم ورحّب بهم هيثم وخالد، ثمّ دخلوا إلى البيت وجلسوا في غرفة الضّيوف جميعا فكانت مفروشة بزاربي جميلة ومزينة بزهور وردية تتوسطها أرائك وطاولة كبيرة وضعت فيها مختلف الحلويات والمشروبات دون أن ننسى فناجين القهوة التي كانت رائحتها تعمّ الطاولة، تبادلوا أطراف الحديث؛ ونادت زينب على رهف لتدخل فألقت التحية عليهم وأعجب أهل زين بحلاوتها وخفّتها وحشمتها واتفقوا على كل الشروط على أن يقام العرس بعد شهرين، أمّا ذاك العاشق فبقي بين حين وآخر يسترق النظر لجميلته التي أسرت قلبه وظلّ زياد يلمح له كي لا يتوتر أكثر، وما زاده وسامة تلك الساعة التي في معصمه، وقامة طوله الفاتنة وبدلته السوداء التي جعلته رائعا، لحظات ووصل الإمام لتتمّ الخطبة وتصبح رهف زوجة لزين على سنة الله ورسوله وفي هذه اللحظة قال الإمام: الفاتحة... ليردّد الجميع قراءتها، ثمّ ألبست زينب وعمّة زين الخواتم لهما والتقطوا لهما صورة وألقى الإمام المباركات عليهما، جلست رهف وزين في غرفة خاصّة، توردت وجنتاها ثمّ طلب منها زين أن ترفع رأسها وهناك دقّ قلباهما وغمرت السعادة أرواحهما، ها هي اللحظة التي انتظراها يعيشانها في الواقع، صار زين زوج رهف شرعا بعد أن أسرت قلبه من أول لحظة. كان صورة فنية في غاية الجمال بلحيته الخفيفة ومنظره المليح، ابتسم وقبّلها قبلة احترام وشوق، كانت رهف كالملاك وشعرها الطويل الأسود منسدل ولامع على كتفيها وعيناها المكحلة التي أضافت لها بريقا وفمها الوردي بارزة حدوده وأنفها الصغير الذي تماشى مع

خدودها التي اصطبغت من شدّة الخجل، جلس مقابلا لها وأمسك يدها ليتراقص قلبها فرحا ووجهها خجلا فقال زين:

– الحمد لله لقد رأيت حوريتي أخيرا، ستكونين زوجة لي وأمًّا لأولادي وقطعة منّي، ثمّ همس في أذنها بصوت خافت: أحبك.

لا تحس رهف إلا بنبضات قلبها تتزايد وقد سمعها زين، تلاقت العيون وفضحت القلوب ما كانت تخبئه من الحب الآسر هناك فقالت رهف: أحبك يا زين، سأسعدك، أنت أغلى ما أملكه وأكثر ما حلمت به.

عانقها وتلاقى القلبان في جسدين بقلب غدا واحدا، وكان أجمل يوم خلد ذكراه في ذاكرة كل منهما.

انصرفت عائلة زين، ورهف راضية وفرحة؛ مضت الأيام سريعا وكان كلّ واحد يحضّر لمراسيم العرس. قرّرت عائلة مريم ورهف إقامة عرس واحد في قاعة أعراس كبيرة كي تكون الفرحة فرحتين، الكلّ عمل وتعب بجدّ من أجل إقامة هذا العرس؛ فالعمل الجماعي دوما يكون مباركا وسهلا. مرت الليالي والأيام وفي قلب كل محبٍّ شوق لحبيبه، لضلعه الثاني، لشريكه الذي سيشاركه الحياة، شوق لا يرويه سوى اللقاء ليأتي اليوم الموعود ويتحوّل الحلم إلى حقيقة فكل ما دعوا به يريانه أمام أعينهما.

أحببتك وأفصحت عن حبي بزواجك

أقيم العرس في مدينة الجزائر العاصمة بعد أن استأجر أهل يوسف قاعة ليقيموا الحفل هناك، قاعة رائعة مزينة بإتقان وبخدم بشوشي الوجه، مزينة بأفخر الورود، بتصاميم عصرية وروتورشاتً تقليدية، زفّ الخبر السعيد للجميع فالكلّ علم بعرس رهف وزين ومريم ويوسف، فعائلة رهف صيتها ذائع هناك، فساعدها كل الناس.

الكل يرقص ويغني، انضمّ المدعوون إلى الحفل الجماعي الكبير وما زاده بهجة تلك الفرق الموسيقيّة بأغاني تقليدية تفوح ألحانها على مسامع الجميع بنغمات رنانة، وبهجة الأولاد جعلت القاعة ضاحكة مستبشرة فتراهم كالفراشات يحلقون هنا وهناك بأبهى الثيّاب، وطاولات كثيرة بها حلويات وعصائر باردة تنعش القلب، وتلك الكراسي المزينة بشرائط حمراء، ازدحمت القاعة بالناس، حشد غفير، تعالت الزغاريد ورقص الجميع وكانت العروستان كأنهّا أختان جالستان على الأرائك التي زينت بمصابيح سحرت أعين الحضور ومزينتان بأبهى الحليّ اللماعة وملامحهما البسيطة الجذّابة، وها هو يوسف بشعره الأشقر وعينيه العسليتين وقامته المتوسطة وبجانبه مريم بعين سوداء واسعة ترتدي ثوبها الأبيض الذي جعلها أميرة، أمّا رهف فكانت متأنقة بفستان أبيض به حبيبات اللؤلؤ جعلها لؤلؤة في البحر بشعرها اللامع المسّرح مزينا بتاج كبير وورود صغيرة فجعلها بأجمل إطلالة، وزين بجانبها والضحكة لا تفارق ثغره، مرتديا بدلته السوداء وربطة عنقه الحمراء التي جعلته وسيما؛ فكانا أجمل ثنائي يعجز اللسان عن وصفهما، وأمامه صاحبه زياد الذي لا يقلّ وسامة فكان يرتدي بدلة زرقاء جعلته كالبحر حلة وهيجانا فصديقه لم يفارقه وساعده في كلّ

شيء فنعم الصديق هو! واكتملت الفرحة فنزلت المباركات عليهم كأنّها فرقعات في السماء ولبستا ألبسة تقليدية تحتويها لمسات عصرية جميلة والرجال يضحكون ويتلذذون بأكواب القهوة اللذيذة، وتلك الحلويات المعسلة. وها هي البقلاوة تتزين عرش كل طاولة، والأطفال يمرحون وأصوات البارود ترتفع في كل الجهات، فاليوم اجتمع المحبّون.

فقال زين لزوجته رهف: مبارك علينا هذا الزواج، بعد حرب من الانتظار قد اجتمعنا، أسأل الله أن يديم المحبة بيننا.

خجلت رهف ومع كلّ كلمة كان يقولها لها تزداد سعادة وتقشعر، وتسري قشعريرة في جسدها وقلبها الذي بات أسيرا له.

كلّ أمّ تدمع عيناها لفراق ابنتها، كانت الفرحة تغمر زينب وأمّ مريم فهذا شعور طبيعيّ، ذاك المكان اجتمعت فيه ضحكات الجميع وانتهى الحفل بسعادة في قلب كل واحد منهم.

«فلتعلمي يا عزيزتي أن وراء الزواج مسؤوليات تنتظرك، إن صلحت أسرتك صلح المجتمع أجمع، فكوني أنثى تمشي بخفّة ولطافة وسموٍ أخلاق لتجني أولادا واعين، وتسلحي بالصبر فكلّ بيت لا يخلو من المشاكل لكن لا تضخمي الأمور ولا تفتعلي المشاكل لأنّ نجاح أسرتك بيدك فأحسني التصرف».

جوان ٢٠١٩ يوم مميز، ها هي أربع سنوات قد مضت من زواج رهف وزين، وها هي تحقّق حلمها بعد أن أكملت رحلة الدّكتوراه التي كانت بمغامرات وأيام صعبة وطرق وعرة لكنّها تحدَت كلّ شيء وتجاوزته بثقتها إضافة إلى مساعدة زوجها لها وإيمانه بقدراتها، تآلفت القلوب وصبرت على ما هو حلو ومرّ، لم يترك أحدهما الآخر

بل كان زين الحضن الحنون لألمها، كبر الحب بينهما وكانت ثمرة حبهما ابنتهما «وصال» التي جعلت بيتهما مدينة أفراح وميلاد جديدا لكلّ ما هو جميل، أمّا العاشقان الآخران فقد انتقلا إلى باريس وكانت خطوة انتقاليّة لمريم التي ظلت تكافح إلى أن صار لها معمل للخياطة وصارت مشهورة هناك.

إنه إحساس بين الشّوق والغربة والحسرة لأمّ مريم فابنتها ستكمل حياتها بعيدة عنها لكن روحها دوما معها. فالبعد بعد المسافة لا بعد القلوب، ستكمل مريم بقية حياتها مع مؤنسها، سالت الدموع لحظة الفراق هناك، والتحمت القلوب وتشابكت الأيادي بعناق أبديّ يسقيه إخلاص وحب وإيثار، وخطت الأصابع لتكتب رهف قصّة حبها وسعادتها بين صفحات تلك المذكرة بأقلام الأمل والحب والإصرار.

«هي أمنيات معلقة.. فما يصعب عليك يسهل على خالقك، وكن دوما على يقين بأنّ أمره بين كاف ونون، فقلوب كسرت وأرواح قد مزّقت وأدعية صعدت إلى عنان السماء في ظلمة الليالي وها قد شفيت بعد انتظار طويل، فالطيّور دوما على أشكالها تقع، ستحب وتغار، ستتألم، سيتمزق قلبك ويكتوي من شوقه لكنّ القدر سيجمعك بمن يشبهك، فالحب هو الحياة».

كن كتلك النّجمة التي صبرت وخطت نجاحها بشظايا قلب محترق!

همسات مني إليك

ستسقط روحك، وتتخبّط لوحدك في صدمات، ستجد من يحب لك الخير ويعينك، وتجد من يهتمّ بك ويدّعي حبك، فلا تغتر بكثرة النّحل الذي حولك، ودافع دوما على بقاء استمرار خليتك، لا تستسلم فالاستسلام ليس من صفاتك، تجاوزت الكثير وستبقى تتجاوز كل عثرة، تقبّل ذاتك وظلامك وجنونك وافتخر بمبادئك، تقبّل ضياءك وتمرد دوما على الذين لا يؤمنون بالمستحيل، أنت معجزة، أنت جوهرة ثمينة، كن بسيطا دوما كحامل باقة أزهار ملونة يجوب الشوارع وينشر البسمة، وأنصحك بالقرآن فبه تنجلي كلّ الأحزان، سيأتيك النّهار الذي يطوي كل أصابع الظلام... ابق شامخا وخالدا في أعالي الجبال، فسينبعث ميلاد حلمك يوما وتحلق في السماء ممسكا راية النجاح، واعلم أنّ كل بذرة سقيتها بالخير ستنبت، كن قريبا من ربّ العالمين وسر على صراطه المستقيم وسيمنحك النور العظيم وجنّة النّعيم، نظف قلبك من نيران الحسد فربّ نعمة بين يديك يفتقدها أحد، تحتاج فقط لأن تمضي لا تقف كثيرا عند لحظات فشلك بل اجعلها قاربا لتصل به إلى برّ الأمان؛ وإياك يا صديقي أن تسمح لأحد أن ينسيك مبادئك، لا تمسح تقاليدك، ولا ترض بأن تكون جثة راكدة بل اصنع من حطامك أرضا مثمرة، لا تسمح للنّار بأن تأكلك بل كن الماء الذي تنبض به الحياة، أنت الآن تمتلك الحاضر فأحسن سقياه بالعمل والجدّ دون أن تنسى ملأ قلبك بالحمد والشكر دائما.

«وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» النساء ١١٣ .

خاتمة

لا يوجد أحد فاشل في هذا التراب هناك من اقتنع بفشله وهناك من حوّل فشله إلى نجاح، فكن أنت من الفئة الثانية.

أعلم أنك قد حزنت واحتضنت وسادتك ليلا وبكيت، أقول لك ارفع يديك وابك بكاء تجهش به نفسك، اجعل دموعك تسقط على سجادتك، لا بين أنظار البشر لأنّ الله هو من يسعف روحك وينير دربك، كل تلك الزجاجات التي رميت أمامك تجاوزها وكلّ الأشواك تخطاها بتوكلك على الله، فالله بعثك إلى الحياة ليبتليك وهو من يداوي جراحك.

يجب عليك أن تفهم أنّ قانون الحياة «نمضي ونسير» ستتلاطم أمواج الابتلاءات حولك وتحاصرك الهموم وترى الدنيا ظلاما، لكنّ الله يرسل لك شعاعا يلوح في الأفق، إنه لطف الله بك، بعد كلّ هذا سيستقرّ داخلك وحينها ستدرك أنكّ لست وحدك، حتى لو غاب العالم بأسره فالله معك!

إليك يا نور عيني ويا ضيائي الذي أرى به الكون «أبي» أحبك يا نهرا لم يجف بابتسامته وعطائه كل يوم، كلّ كلماتي أطلقت سراحها ولم أعذبها، جعلتها حرّة إلّا كلمات الحب لك يا أبي مهما عبّرت وكتبت لا أوفيك حقّك، وأنت يا أمّي يا شمسا دافئة أعشقك، سندي وعضدي، لن أجد بديلا عنك أتمنى أن أعوّضكما في المستقبل عن كلّ شيء، حفظكما الله لي.

إلى عمتي «نورة» أمّي الثانية وأختي الكبرى، معلمتي في الكفاح، ومحفزتي في النجاح، أشكرك على احتوائك لي في كل مرة وجزاك الله

عني كل خير.

إلى أستاذي أسامة بن خلوف المشجع لي في كلّ لحظة أضعف فيها، شكرا لك على نصائحك في أيام ثانويتي والتي نفعتني في مسيرتي، وأقدّم شكري إلى أستاذتي التي أشرفت على هذا العمل المتواضع «ذويبي زيدومة» التي عملت كمدققة لغوية أولى، ولفريق «ماروشكا للنشر والتوزيع» الذين سهروا على أن يكون هذا الكتاب بأبهى حلة.

وبأجمل الكلمات أقدّم شكري الخاص لجندي الخفاء الذي لولاه لما أكملت كتابي، أسأل الله لك دوام الصحة والعافية، فليحفظك الله.

إنّ تقدير الذات وتحفيزها أمران أساسيان لتقدّم الإنسان وتحقيق أحلامه، لاسيما في حياة مليئة بالصعوبات التي لا يمكن قهرها إلاّ بالعزيمة القوية والإصرار على بلوغ الأهداف، من أجل ذلك على الإنسان أن يحرص على تحفيز نفسه بنفسه من جهة، وإحاطتها بأشخاص إيجابيين لدفعه دوما للأفضل من جهة أخرى.

لقد حلمت كثيرا ولم أتوقف لحظة عن صنع الأحلام في عالم الخيال، سعيت كثيرا وراءها وواثقة أني سأصل إليها يوما ما، بين دعاء وتحمّل وصبر... مضيت في هذه الحياة التي كانت قصيرة جدّا علمتني الكثير والكثير، لم أبح إلّا للورق الذي أكتب فيه بإحساس عالٍ وشعور مرهف، أرجو أنها لامست قلبك وأنت تقرأ ما كُتِبَ هنا.

تحياتي...

الفهرس

إهداء ٥

الكارثة ٧

الفراق ١٠

ما بعد المحنة ٢٧

هداية من الله ٣٢

هل وقعت في حبه؟ ٣٩

المكيدة ٤٨

أُمسكُ بيدي يا صديقي ٦٤

يوم العطلة ٦٧

تغير مفاجئ ٦٨

صلاتي حياتي ٧٦

الغيرة ٨١

فراق موحش ٩٢

كن أُنت ١٠٥

وفاء النخليل ١٠٨

يوم الخطبة ١١٦

سأكون ١٢٠

جرحة ألم ١٢٣

بعد العسر يسر ١٣٣
الاشتياق ١٣٨
حب من طرف واحد ١٤٠
رحلة إلى الهضاب العليا..... ١٤٣
لقاء بعد فراق ١٤٨
أنت ملاكي..... ١٥٦
أحببتك وأفصحت عن حبي بزواجك..... ١٦٤
همسات مني إليك ١٦٧
خاتمة ١٦٩

لمحة عن الكتاب :

رواية إجتماعية، رومانسية ذات طابع ديني وأخلاقي مميّز تحتوي على ظواهر إجتماعية نعيشها في حياتنا اليومية وتسلط الضوء على الصحبة الصالحة وتحدي الفتاة لكل الصعوبات من أجل تحقيق أحلامها ، بالاضافة إلى التقلبات النفسية التي تواجهها الفتاة الشابة ، خاصة الفتاة المحافظة في ظل هذا الصراع الديني والثقافي الذي نعيشه .

لمحة عن المؤلفة :

صبرينة بوحنك ،من مواليد ٢٠٠١ ، تنحدر من بلدية تاشودة بولاية سطيف، طالبة جامعية تخصص لغة وأدب عربي فرع لسانيات تطبيقية "ماستر ١" بجامعة محمد لمين دباغين ولاية سطيف، صاحبة مشروع "علّمني الإلكتروني لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم أحكام التجويد" وصانعة لمحتوى ديني وثقافي على الفيسبوك من خلال مجموعة "زهرات نحو طريق أفضل".

مشاركة في عدة كتب جامعة:

- صرخات الضاد
- براق الكلمات
- بوح الستارين
- وحي الأفئدة

9 789931 842781